الموحّدون في الغرب الاسلامي

تنظيماتهم ونظمهم

الدكتور عزالدّين عمر موسى

أستاذ التاريخ الاسلامي
جامعة الملك سعود - الرياض



دار الغرب الإسلامي

تمهيد

تمثل هذه الدراسة أولى ثلاث دراسات أعددتها في الفترة من ديسمبر 1967 إلى أكتوبر 1975. أما الدراستان الأخريتان فأولاهما: **دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي**. وثانيتهما: **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي**. وأصل هذه الدراسة التي هي بين يدي القارىء الآن هي رسالة ماجستير قدمت إلى دائرة التاريخ في الجامعة الأميركية في بيروت في فبراير 1969. وقد أشرف عليها أستاذي الكريم الأستاذ نقولا زيادة. وقد فحصها، بالإضافة إليه، كل من أستاذيّ الدكتورين قسطنطين زريق وإحسان عباس. وكان لملاحظاتهم جميعاً فوائد عظيمة في إعداد الأصل للنشر بالصورة التي أمام القارىء الكريم.

ولكنني حرصت وأنا أعد المخطوط إلى النشر على ألاّ أحدث تغييراً جذرياً في المرتكزات الفكرية التي قام عليها البحث، حتى تمثل الدراسة بصورتها الأولى مرحلة من مراحل نموي الفكري في مدارج البحث التاريخي، غير أني عدلت في منهج البحث من حيث تقميش المادة وفحصها والتثبت من الحقائق وطريقة عرضها وفقاً للنقد الذي وجه لي من جهة، وحال القارىء الذي أود مخاطبته من جهة أخرى، دون أن يكون ذلك على حساب المنهج العلمي في البحث التاريخي. ولعل التعديل الأساسي الذي أحدثته على أصل الرسالة هو تضمين الفصل الأول عن المصادر والدراسات في مقدمة هذا الكتاب الذي ينشر وإفراد خاتمة للبحث بعد أن كان الأصل خلواً منها إذ كنت قد جعلت لكل فصل خاتمة.

ويجدر بي أن أنوه بفضل أستاذي نقولا زيادة عليّ في توجيهي نحو الدراسات المغربية بعد أن كانت الدراسات المشرقية مستحوذة على اهتمامي. وما أن بدأت في هذا الاتجاه الجديد حتى أخذ الدكتور إحسان عباس برعاية جهدي، وتوجيهي في دروب تاريخ المغرب الإسلامي ومسالكه، فكان لي عوناً على مشقاته، ونبراساً في ظلماته، وترباساً أتوكأ عليه كلما كلّ سعيي، وكانت مكتبته الخاصة زاد المسافر في دهاليز ذلك التاريخ ودروبه الطويلة، فإن أنتجت نفحاً طيباً من ذلك الغصن الرطيب فذلك بغية ملتمسي وتكملة مسعاي، فله خالص شكري عرفاناً بجمائله التي لا تحصى.

وأود أن أشكر الأخ الأستاذ الدكتور يوسف فضل حسن على تفضله بقراءة المخطوط في أصله الأول حينما قدم إلى بيروت زائراً؛ فقد زودني بملاحظات قيمة أفادت في إعادة ترتيب بعض أجزاء الدراسة. وأخص بالشكر الشيخين إبراهيم الكتاني ومحمد المنوني على ما زوداني به من معلومات أثرت البحث وأكدت نتائجه. وكذلك أتوجه بشكري الجزيل لموظفي مكتبة الجامعة الأميريكية وأخص بالشكر الدكتور يوسف خوري والأستاذ حداد والسيدة زخريا على المساعدات التي لا حصر لها في تزويدي بكل ما احتجته من مصادر ومراجع ودراسات مخطوطة ومنشورة.

وأخيراً أوجه شكري لحكومة جمهورية السودان على تفضلها بمنحي بعثة دراسية إلى الجامعة الأمريكية في بيروت أنجزت خلالها هذا البحث، وأخص بالشكر السادة عبد الحليم علي طه وعبد الرحمن الشيخ ومحمد إبراهيم النور على ما بذلوه من مساعدة في هذا الصدد، فلهم جميعاً جزيل شكري وخالص ودي. ولدار الشروق أعظم منّة على نشرها للدراستين الأخريين، وكان من المفْترض أن تنشر هذه الدراسة منذ 1979 ولكن لم تفعل بسبب الحرب حتى أصل المخطوط لا ندري له مكاناً. والشكر أجزله لدار الغرب الإسلامي لتفضلها بنشر الكتاب في هذا العام 1990 بعد أن طال انتظار الدار الأولى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

عز الدين عمر موسى

المقدّمة

الموضوع وأهميته:

كان المغاربة في العصر الوسيط يعيبون على المشارقة جهلهم بأخبار المغرب. ولئن وجد المشارقة عذراً في بعد المسافات وقلة الأخبار، فإنهم اليوم لا يجدون عذراً بعد أن ترابطت أطراف الأرض وزالت المسافات أو كادت بفضل وسائل الاتصال الحديثة وتوفر أدوات البحث. وتاريخ المغرب بحاجة لجهود كثير من الدارسين لأن فترات كثيرة ومسائل متعددة من تاريخه لم تدرس دراسة علمية على الرغم من جهود بعض المغاربة المحدثين، وقلة من أبناء المشرق الذين اهتموا بالدراسات المغربية والأندلسية قبل وقت قصير. والتاريخ العربي في حاجة ملحة لمثل هذه الدراسات لأن البحث التاريخي في هذا القرن اتجه إلى معرفة الماضي من خلال وحداته الحضارية. ولن يتيسر لنا دراسة شاملة ومتعمقة للحضارة العربية الإسلامية إلا بعد بحث جوانبها المتعددة، ومظاهرها المختلفة، واستجلاء غوامض التاريخ المغربي جانب من تلك الجوانب، وتوضيح النظم الإسلامية عامة والمغربية منها بصفة خاصة. ولهذا اخترت دراسة تنظيمات الموحدين ونظمهم في المغرب موضوعاً لبحثي هذا.

وفضلاً عن هذا فإن دراسة الموضوع تسعف في تفهم النظم التي سادت في المغرب الكبير لخمسة قرون تلت عهد الموحدين؛ ذلك لأن النظم الإدارية الموحدية ظل العمل بها في المغرب خلال هذه الفترة لا سيما وأن الدول التي جاءت بعد الموحدين استمرت في تقليد رسومهم، مثل الحفصية في تونس والمرينية في المغرب الأقصى ودولة بني عبد الواد في تلمسان والنصرية في

غرناطة. ويبدو أن كثيراً من نظم الموحدين ظل العمل بها حتى بعد أن انقرضت هذه الدول التي أعقبت دولة الموحدين.

أضف إلى هذا أن الفترة الموحدية كانت فترة تزاوج حضاري بين المجتمعين المغربي والأندلسي. وعلى الرغم من غلبة المغرب الأقصى السياسية، في فترة الدراسة هذه، إلا أنه قد تأثر تأثيراً كبيراً بالحضارة الإسلامية الأندلسية، وما النظم إلا مظهر من مظاهر هذا التأثير الأندلسي.

ولعل خير ما يصور أهمية الموضوع الذي ندرسه أن الفترة الموحدية تنطق بتجربتين هامتين نعيش ما يشبههما في الوقت الحاضر، وهما:

أولاً: محاولة الموحدين صبغ المجتمع بفكرة واحدة وذلك عن طريق سيطرة الطلائع التي تؤمن بهذه الفكرة.

ثانياً: الفكرة القائمة على إحياء الإسلام في نفوس تلك الطلائع وتشييد مجتمع الإسلام ودولته بطريقة تحتذي خطى فترة الرسالة حذو القدة بالقدة.

كلتا القضيتين من القضايا التي يحسن التعرف على نتائجها لا سيما وأن أمتنا تمر بتجربة أو تجارب مشابهة، منذ فجر الاستقلال السياسي، في أغلب أقطار الأمة العربية الإسلامية، مع اختلاف في الفكرة في هذا القطر أو ذاك. ولكن المنهج واحد والأسلوب واحد والطريقة واحدة مع اختلاف الغطاء الفكري والمرتكز العقائدي والتبرير السياسي.

ونسبة لأهمية الموضوع كان لا بد من انتقاء المادة من مصادرها الأولية بطريقة نقدية، وتكوين صورة عامة عن التطورات السياسية في الدولة الموحدية، ومقابلة هذه التطورات مع التنظيمات والنظم وربطها بالتطورات السياسية وتقلباتها. فجاءت الدراسة في سبعة فصول سوى هذه المقدمة والخاتمة. وعالجت تلك المقدمة مصادر الموضوع والدراسات عنه مع تبيان قيمة كل منها بالنسبة لموضوع البحث.

وكان مبحث الفصل الأول عن التطور السياسي للدولة الموحدية بطريقة

مجملة موضحة للأطوار الأساسية الثلاثة التي مرت بها الدولة: دور التأسيس وعصر الازدهار ثم فترة الانحلال والسقوط مع توضيح للخصائص الأساسية وللسمات البارزة لكل طور من تلك الأطوار.

وأعقب ذلك دراسة التنظيمات الحزبية للموحدين في الفصل الثاني؛ ذلك لأن هذه التنظيمات كانت تخرّج طلائع الدعوة في دور الثورة ورجال النظم في طور الدولة. وفي هذا الفصل حاولت أن أستقصي بالدراسة مفهوم الموحدين للحزب، وتكوين التنظيمات ودورها، ونوع التربية الحزبية ووظيفتها، والتغييرات التي طرأت على كل ذلك نتيجة للتحول من دور الثورة إلى طور الدولة.

وكان موضوع الفصل الثالث النظام السياسي الذي يرسم سياسة الدولة. فشمل البحث الخلافة ومجالسها الاستشارية. فوضحت نظرة الموحدين للخلافة وشروطها وطريقة اختيار خلفائهم ومراسيم بيعتهم، وألقابهم وشاراتهم، ودور الحاشية معهم وسلطانها عليهم. ثم بحثت في الهيئات الاستشارية وتكوينها وسلطاتها وتطورها، والتغييرات التي حدثت نتيجة للتغير السياسي في أطوار الدولة الثلاثة.

وبعد هذا عالجت الفصول الأربعة الباقية النظم التي تنفذ السياسة التي يقررها النظام السياسي. فالفصل الرابع عن الجهاز الإداري، سواء أكان مركزياً أو إقليمياً، شاملاً للوزارة والكتابة والبريد والإدارة العسكرية والمالية وتعيين الولاة وسلطاتهم. والفصل الخامس عن الخطط الدينية مع دراسة لمصادر الأحكام عند الموحدين والنظم التي تصدر تلك الأحكام أو تباشر تنفيذها أو تشرف عليه من قضاء وشورى وعدالة ونظر في المظالم وحسبة وصلاة وما يتعلق بها من إمامة وخطبة وآذان.

ولما كان ضبط الأمن وحفظه من أكثر الأمور التي استحوذت على اهتمام الموحدين فقد كان الفصل السادس عن النظام العسكري من جيش وأسطول مع دراسة عناصر الجيش وعدده وأقسامه ووحداته وقيادته وعدته ومسلكه في الحرب

استعداداً وسيراً ونظاماً وضبطاً وربطاً وخططاً وطريقة قتال، ثم دراسة تكوين الأسطول ودور صناعته وعدته، وتوضيح ما طرأ من تغييرات مع تقلب أحوال الموحدين تأسيساً وازدهاراً واضمحلالاً.

وأخيراً كان لا بد في الفصل السابع من دراسة النظم المالية التي عليها اعتماد سائر النظم. فعالج هذا الفصل أوجه الدخل والصرف مع تبيان التغيير الذي طرأ مع تغير أحوال الدولة وتبدل أوضاعها.

وفي ختام البحث حاولت أن أجمل نتائج الدراسة بصورة عامة هادفاً إلى إبراز الخط العام لتطور تنظيمات الموحدين ونظمهم، محاولاً الكشف عن العوامل التي أدت إلى التغييرات في هذه النظم وتلك التنظيمات، رابطاً تلك التغييرات بالتبدل الذي حدث في الإيمان بالفكرة والالتزام بها.

مصادره والدراسات عنه:

تواجه الدارس للنظم في التاريخ الإسلامي صعوبات جمه لأن المصادر العربية قلما تشير إلى موضوع دراسته. ومن ثم فإن المادة التي يجمعها بعد عناء بالغ لا توازي الجهد الذي يبذله. وإن صح هذا بالنسبة للتاريخ الإسلامي عامة فإن مهمة الدارس لفترة تاريخية قصيرة ستكون أشق لا سيما إذا لم تحظ فترته بمصدر عن نظمها ولم يكن أمامه إلا كتب التاريخ العام والأدب والجغرافية. وتزداد صعوباته وتتضاعف إذا كانت المصادر التي كتبت في الفترة التي يدرسها قد فقدت. ولعله من المفيد استعراض طرفاً من التراث الذي كتب في الفترة الموحدية وفقد حتى نتبين قيمة المصادر التي وصلتنا.

لقد فقدت كتب كثيرة صنفت عن الفترة الموحدية بأقلام رجال عاصروا الدولة الموحدية وعاشوا في ظلها واشتركوا في أحداثها. ومن أمثلة ذلك **المجموع في تاريخ الموحدين** لمؤلف مجهول، وقد نقل عنه البيذق، ولهذا يبدو أنه عاش في منتصف القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي[1]،

(1) أنظر البيذق: **كتاب أخبار المهدي وابتداء دولة الموحدين** (تحقيق ليفي بروفنسال باريس، =

وفضائل المهدي لأبي القاسم المؤمن، وكتاب لابن الراعي نجهل عنوانه ونقل عنه كثير من المتأخرين، **وتاريخ الدولة الموحدية** لأبي القاسم السهيلي، **والاكتفاء في تاريخ الخلفاء** لأبي القاسم الكردبوسي وقد صنفه في خلافة المنصور الموحدي، **وتاريخ في دولة عبد المؤمن وحزبه** لأبي العباس أحمد بن محمد الفهري الإشبيلي المعروف بابن سميرة (توفي في حدود القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي)[1]، وتاريخ الموحدين لأبي الحجاج يوسف بن عمر[2]، **ونظم اللآلي في فتوح الأمر العالي** لأبي علي حسن بن حسن بن عبد الله الأشيري[3]، وكتاب **شجرة أنساب الخلفاء والأمراء** وكتاب ميزان العمل لأبي علي الحسن بن عتيق بن الحسين بن رشيق[4]. وكتاب **الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية** لابن الصيرفي (ت 570 / 1174) وقد وصله إلى قريب وفاته[5]، **وتاريخ المرابطين والموحدين** لأبي عبيد المراكشي، **والمقباس في أخبار المغرب وفاس** لابن الوراق[6].

وقد ضاعت كتب بعض المؤرخين الذين عاصروا الموحدين وصنفوا وهم في المشرق، مثل **المغرب في أخبار محاسن أهل المغرب** لأبي يحيى اليسع (ت 575/1179)[7]. **وتاريخ المغرب ومن تولاه من أتباع ابن تومرت** لأبي

= 1928 م) ص 81 وما بعدها. وسنشير إلى هذا المصدر بـ **أخبار المهدي**.

(1) أنظر عنهم ابن سودة: **دليل مؤرخ المغرب الأقصى** (الدار الأقصى، دار الكتاب 1960 م) جـ 1 ص 133 — 136 وسنشير إلى هذا المرجع بـ **دليل**.

(2) ابن أبي زرع: **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس** (باعتناء كارل بوجن تورنبرغ، أو بسالة، 1843 — 1846 م) ص 137 ويسمى ابن أبي زرع أبا الحجاج يوسف «مؤرخ دولتهم». وسنشير إلى الأنيس المطرب بـ **روض القرطاس**.

(3) ابن الآبار: **الحلة السيراء** (تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، 1963 م) جـ 2 ص 92.

(4) **دليل** جـ 1 ص 166.

(5) ابن الزبير: **القسم الأخير من صلة الصلة** (تحقيق ليفي بروفنسال الرباط، 1937 م) ص 182 وسنشير إلى هذا المصدر بـ **صلة الصلة**.

(6) **أنظر دليل** جـ 1 ص 133 — 136.

(7) **دليل** جـ 1 ص 164.

الحسن بن يوسف القفطي (ت 624/1227)[1].

ولم يصلنا عدد من كتب التراجم والبرامج التي جمعت خلال الفترة الموحدية مثل كتب ابن فرتوت وبرامج ابن الملجوم وابن القطان وأبي عبد الله الأسدي وابن عيسى الصنهاجي [2] وكثير غيرها[3].

وكثير من المؤلفات التي وصلتنا لم تصلنا كاملة كما سيتضح من عرضنا لها في هذا الفصل. ومن هذا يتبين أن المادة التي استفدنا منها حصيلة مصادر قليلة من تراث كبير لم يسعفنا الزمن على الاستفادة منه وإن جاءت مادة الكتب المفقودة في نقول الكتب المتأخرة فالمقتبس قد لا يختار كل شيء.

وبدأ تقييم مصادر البحث والدراسات عنه بكتب التاريخ بدءاً بما أوقف على الدولة الموحدية دون سواها فالكتب عن المغرب ثم التاريخ الإسلامي عامة. ثم النظر في كتب التراجم ابتداءاً بالعامة فالبلدان فالأجناس والأنساب فالأصناف من أدباء وفقهاء وصوفية ثم كتب برامج الشيوخ. وفي كتب التاريخ والتراجم قدمت المؤلفات المغربية على المشرقية لأن المغاربة إما عاصروا الأحداث أو عاشوا في أرضها فتيسر لهم الاستفادة من مادة من سبقوهم بصورة أفضل من المشارقة.

ويلي ذلك تقييم كتب الجغرافية والرحلات فالموسوعات ثم النظم وأخيراً ألقي الضوء على الدراسات العربية ثم الأجنبية مع إلحاق ما ترجم من المؤلفات الأجنبية إلى الدراسات العربية لأن أساس التقسيم يقوم على أساس لغوي.

(1) **دليل** جـ 1 ص 136.

(2) راجع **صلة الصلة** ص 149، 358، الكتاني: **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والأثبات والمسلسلات** (فاس، المطبعة الجديدة، 1337 م) جـ 2، ص 114.

(3) راجع عنها السنوني: **العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين** (تطوان، المطبعة المهدية، 1905 م) ص 68 وسنشير إلى هذه الدراسة بـ **العلوم والآداب**.

المصادر:

إن الكتب التي أوقفت على دولة الموحدين جاءت من ثلاثة موارد وهي: الوثائق الرسمية وتواليف ابن تومرت ثم ما كتبه المؤرخون. وقد نشر ليفي بروفنسال سبعاً وثلاثين رسالة موحدية صادرة عن الخلفاء ومن إنشاء كتابهم[1]. وقد أخذ هذه الرسائل عن مخطوط بخزانة الأسكوريال ما عدا الرسالة العاشرة فقد أضافها عن صبح الأعشى[2]. وهذه الرسائل صادرة عن الخلفاء إلى أهل مدينة أو الوالي فيها أو الطلبة بها أو جميعهم. ويغلب عليها الطابع الإعلامي والتوجيهي التربوي. ولكنها كشفت عن كثير من نظم الموحدين السياسية والإدارية والعسكرية والمالية. وقد كانت هي العمدة في التثبت من خبر أو التحقيق في مصطلح.

وأما المورد الثاني فهو مؤلفات ابن تومرت، وقد كتب رسائل كثيرة أشهرها «أعز ما يطلب» و«القواعد» و«الإمامة» و«المرشدة». وجمع جولد تسهير كل هذه الرسائل مع آخر في كتاب «تعاليق ابن تومرت»[3]. وقد أفادت هذه الرسائل في توضيح أفكار ابن تومرت الدينية والسياسية وأثرها في توجيه تربية الموحدين توجيهاً أسلس قيادهم. كما أنها أسعفت في رسم صورة عن مصادر الأحكام عند الموحدين ونظرتهم إلى الخلافة.

والمورد الثالث والأخير هو ما كتب من تاريخ عن دولة الموحدين وحدها. ولم يصل إلينا من هذا النوع إلا كتابان وأولهما لأبي بكر بن علي الصنهاجي المكني بالبيذق الذي عاش في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي،

(1) نشر ليفي بروفنسال هذه الرسائل بعنوان: **رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية** (رباط الفتح، المطبعة الإقتصادية، 1941 م) وسنشير إليها بـ **رسائل موحدية**.

(2) **رسائل موحدية** ص ب من المقدمة.

(3) ابن تومرت: **تعاليق ابن تومرت** (الجزائر، 1903 م) وسنشير إلى هذا المصدر بأهم رسالة فيه وهي **أعز ما يطلب**. ولابن تومرت كتاب آخر هو **الموطأ** (نشر مطبعة فونتانة الشرقية بالجزائر، 1907 م). ولم نتمكن من الاطلاع عليه.

وصحب ابن تومرت منذ بداية حركته وشارك في الأحداث. وقد نشر ليفي بروفنسال ما تبقى من كتاب البيذق مع قطع أخرى بعنوان **أخبار المهدي وابتداء دولة الموحدين**. وعلى الرغم من مشاركة البيذق في الأحداث فإن هذا الجزء من كتابه لا يظهر أن الرجل أراد كتابة تاريخ للفترة التي شهدها، فهو أقرب إلى المذكرات التي وضعت لتسعف الذاكرة، فمعلوماته قليلة ومقتضبة. هذا فضلاً عن أن بعض ما يورده أسطوري الطابع.

وأما الكتاب الثاني فقد صنفه أبو مروان عبد الملك بن صاحب الصلاة (ت 594 / 1198) وهـو: **المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين...**[1].

وقد كان الكتاب في أصله ثلاثة أجزاء تبدأ من فترة المهدي وتنتهي بوفاة المؤلف. والموجود منه الجزء الثاني، وأحداثه امتدت عبر سنتي 554 و 569 هـ. فحُرمنا أخبار طور التأسيس والفترة التي عاصرهـا المؤلف وشارك في أحداثها.

وطريقة ابن صاحب الصلاة حولية. وأسلوبه يغلب عليه السجع ولكنه لم يؤثر على دقته في إيراد الخبر. فمصادره هي الروايات المباشرة والمشاهدة والوثائق التي أورد منها نصوصاً كثيرة. فجاء كتابه زاخراً بالمعلومات عن النظم السياسية والإدارية والدينية والعسكرية والمالية ولهذا كان عليه الاعتماد الأكبر في هذه الدراسة.

ويستطيع المرء أن يعتبر الكتب التي صنفت عن الدولة الحفصية ضمن هذه المجموعة لأن الدولة الحفصية في تونس ما هي إلا امتداد للدولة الموحدية في المغرب الأقصى. وقد عالجت هذه الكتب الفترة الموحدية كمقدمة للدولة الحفصية. فأخبارها ـ والحالة هذه ـ مختصرة واستمدتها من كتب سابقة. ومن هذا النوع **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية** لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم

(1) حقق هذا الكتاب عبد الهادي التازي وطبع في بيروت سنة 1964 م وسنشير إليه بـ **المن بالإمامة** غير أن هذه الطبعة الوحيدة مليئة بالأخطاء.

اللؤلؤي الزركشي (ت 887 /1482). وعلى الرغم من أنه يعتمد على مصادر أغلبها بين أيدينا[1] إلا أنه اعتمد على كتاب قد فقد لابن نخيل[2] الذي عمل كاتباً للحفصيين في بداية أمرهم. وعن طريق رواية ابن نخيل زودنا الزركشي بمعلومات عن سلطات الولاة والمتنفذين.

ولئن فقد جل التراث الذي كتب في ظل الموحدين موقوفاً على دولتهم فقد حفظت كثير من مروياته في كتب التاريخ العام، وأهمها ستة كتب تعالج تاريخ المغرب الكبير.

أولاً: المعجب في تلخيص أخبار المغرب لأبي محمد عبد الواحد بن علي المراكشي (ألف 621 /1224). وقد صنف كتابه بالمشرق مما يسر له قدراً كبيراً من الحيدة في رواياته[3] ونقدها[4]. واتصالاته برجالات الدولة الموحدية جعلت كتابه يفيض بالأخبار السياسية. غير أن أهمية المراكشي تظهر في اهتمامه الواسع بالنظم الموحدية، فقد حرص على ذكر وزراء وكتاب وقضاة وولاة كل خليفة، وفصّل القول في تنظيمات الموحدين وقبائلهم. وذيل كتابه بمعلومات جغرافية هامة ساعدت كثيراً في تقدير الحياة الاقتصادية. كما وأنه الكاتب الوحيد الذي أورد إحصاء للولايات الموحدية في المغرب الكبير. غير أن عيب المراكشي أنه كتب من ذاكرته وبعيداً عن مصادر مروياته، فجاءت بعض رواياته مرتبكة وضعيفة ومختلفة عن المصادر المعاصرة الأخرى، لا سيما في ذكر تواريخ الأحداث[5]. وكيفما كان الأمر فقد وفّر المراكشي رواية ثانية عن الدولة الموحدية إذا ما اعتبرنا روايتا

(1) راجع الزركشي: **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية** (تحقيق محمد ماضور تونس، المكتبة العتيقة، 1966 م) ص 4 وسنشير إلى هذا المصدر بـ **تاريخ الدولتين**.

(2) أنظر **المصدر ذاته** ص 3.

(3) إن المراكشي لا يعظم ابن تومرت ولا ينتقص من قدر المرابطين: راجع **المعجب في تلخيص أخبار المغرب** (ضبط محمد سعيد العريان ومحمد العلمي، القاهرة، مطبعة الاستقامة، 1941 م) ص 178، 185 وسنشير إلى هذا المصدر بـ **المعجب**.

(4) أنظر **المعجب** ص 178، 188 وما بعدها.

(5) قابل بين **المعجب** ص 236، 245، و**المن بالإمامة** ص 79، 80.

البيذق وابن صاحب الصلاة تمثلان واية مؤرخي «البلاط» الموحدي.

ثانياً: نظم الجمان لأبي علي الحسين بن القطان الكتامي (القرن السابع الهجري /الثالث عشر الميلادي). ويرجح محققه أن أصل الكتاب سبعة أجزاء تتناول تاريخ المغرب منذ الفتح الإسلامي[1]. وقد ضاع أكثره والموجود المنشور هو جزء من الجزء السادس وفيه أخبار سنة 500-533 هـ. وقد رتبه على السنين. والراجح أنه كتبه للخليفة المرتضى الموحدي وربما كان ابن القطان أحد كتّاب ذلك الخليفة[2]. وقد اعتمد على روايات مؤرخين ضاعت كتبهم مثل اليسع وابن الراعي وابن الوارق وابن صاحب الصلاة. وأورد كثيراً من الوثائق خاصة رسالة عبد المؤمن التي بعثها عام 543 /1147 إلى الولايات شارحاً طريقة العمل في كافة نظم الدولة. وسيجد القارىء أن هذه الرسالة التي ينفرد ابن القطان بذكرها كانت الأساس في هذه الدراسة عن أوّليات النظم الموحدية. وإلى جانب هذا فقد ذكر ابن القطان معلومات واسعة عن تنظيمات الموحدين الحزبية.

ثالثاً: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لأبي عبد الله محمد بن عذاري المراكشي المتوفى في أواخر القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي. وأرّخ ابن عذاري تاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى سنة 667 هـ. وقد كان يظن إلى وقت قريب أن فترتي المرابطين والموحدين من هذا الكتاب قد فقدت، حتى عثر هويسي على فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين ونشرها[3] ثم وجد القسم الموحدي ونشره كتاباً قائماً بذاته[4]. وقد

---

(1) كتاب نظم الجمان (تحقيق محمود علي مكي، تطوان، المطبعة المهدية، لا. ت.) ص غ من المقدمة وسنشير إلى هذا المصدر بـ نظم الجمان.

(2) راجع مقدمة المحقق لـ نظم الجمان.

(3) نشر هويسي هذا الجزء في مجلة Hespéris ثم جعلته دار الثقافة الجزء الرابع من البيان المغرب، وقد ذيله الدكتور إحسان عباس بتعليقات وافية. وسنذكر طبعة دار الثقافة دائماً هكذا: البيان المغرب (ط. دار الثقافة).

(4) حقق هذا الجزء هويسي بمشاركة محمد بن تاويت ومحمد إبراهيم الكتاني (تطوان، =

اعتمد ابن عذاري على مؤلفات من سبقوه وأكثرها مفقود. كما اعتمد على الروايات السماعية والمشاهدة في الجزء الأخير من حياة الدولة الموحدية. فإذا اعتبرنا **نظم الجمان** مكملاً للنقص الأول في المن بالإمامة فحري بنا أن نعد **البيان المغرب** متمماً لكتاب المن بالإمامة. وشفيعنا في هذا الرأي نقوله الكثيرة عن ابن صاحب الصلاة، وإيراده لكثير من وثائق الموحدين ومكاتباتهم، ووفرة المعلومات السياسية والإدارية والاقتصادية والعسكرية فيه. فهو أوفى مصدر لدينا.

رابعاً: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. وقد نشر منسوباً إلى أبي الحسن علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي (ت 726 /1325). غير أن محمد الفاسي يرى أن الروض روضان: روض ابن أبي زرع وهو كبيم مفقود وروض أبي محمد صالح بن عبد الحليم الغرناطي (ت 708 / 1308 أو 710 / 1310). وهو مختصر وهو المتداول بين أيدينا وقد نسب خطأ إلى ابن أبي زرع[1].

والكتاب يسرد أخبار المغرب منذ دولة الأدارسة إلى أيام المؤلف. وطريقة المؤلف فيه أن يعرض أخبار حكام كل دولة ثم يعقب ذلك بأهم الأخبار في عهدها. وأهميته تظهر فيما أولاه من عناية للأحوال الاقتصادية والعمرانية. غير أن كثيراً من أخباره السياسية مضطربة وغامضة وتختلف عن المصادر التي عاصرت الموحدين[2].

= سلسلة معهد مولاي الحسن، 1960 م) وسنشير إلى هذا الجزء دائماً بـ البيان المغرب جـ ٣.

(1) انظر الفاسي «المؤرخان: ابن أبي زرع وابن عبد الحليم» **مجلة تطوان**، 1960 م، العدد الخامس، ص 154-156.

(2) والكتاب بصورته المطبوعة يحتاج إلى إعادة تحقيق وطباعة نسبة لكثرة الأخطاء في القراءة ورداءة الطبع.

خامساً: مفاخر البربر صنفه مؤلف مجهول سنة 712 / 1312 والموجود منه نبذ قصيرة[1] وفائدته في موضوع هذه الدراسة كانت محدودة.

سادساً: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية[2] لمؤلف مجهول صنفه سنة 783 / 1381، وقد عالج تاريخ المغرب منذ تأسيس مراكش إلى سنة 783 هـ. وعلى الرغم من أن أخباره مختصرة إلا أنه ذكر عصر عبد المؤمن في شيء من التفصيل. وقد أورد معلومات هامة عن تنظيمات الموحدين الحزبية والإدارية وهو المصدر الوحيد الذي فصل طريقة القتال عند الموحدين.

ورجعنا إلى كتابين مغربيين من كتب التاريخ الإسلامي العام: أولاً كتاب **أعمال الإعلام في من بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام** للسان الدين محمد ابن عبد الله بن الخطيب (ت 776 / 1375). وقد نشر ليفي بروفنسال قسم إسبانيا بعنوان: **تاريخ إسبانيا الإسلامية**، وقد نشر أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني قسم المغرب بعنوان: «**تاريخ المغرب في العصر الوسيط**». ففي القسم الأندلسي أوجز ابن الخطيب تاريخ الموحدين إيجازاً شديداً ووعد أن يوفيه حقه فيما بعد[3]. وأما في القسم المغربي فلم يتجاوز الكتاب بداية خلافة عبد المؤمن. ومن هنا فلم تكن الفائدة من هذا المصدر إلا قليلة في تحقيق بعض الأخبار المتعلقة برجالات الأندلس الذين عملوا في نظم الموحدين في بداية الدولة.

ثانياً: العبر وديوان المبتدأ والخبر لأبي زيد عبد الرحمن بن خلدون (ت 808 /1406) فالمقدمة التي تشكل الجزء الأول من هذا الكتاب[4] أولت النظم الموحدية عناية خاصة إلا أن بعض النتائج التي توصل إليها ابن خلدون وجدنا ما

(1) نشر هذا الكتاب ليفي بروفنسال بعنوان: **نبذ تاريخية في أخبار البربر في العصور الوسطى منتخبة من مفاخر البربر** (رباط الفتح، المطبعة الجديدة، 1934 م). وسنشير إليه بـ **مفاخر البربر**.

(2) طبعة علوش (رباط الفتح، 1936 م).

(3) أنظر **تاريخ إسبانيا الإسلامية** (تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت، دار المكشوف، 1956) ص 265 وسنشير إلى هذا المصدر بـ **أعمال الأعلام** (ليفي).

(4) رجعنا إلى طبعة دار الكتاب اللبناني (بيروت 1956 ـ 1959) وسنشير إليها بـ **العبر**.

يخالفها في المصادر الأخرى. وتعرض ابن خلدون لتاريخ الموحدين بشكل تفصيلي وافٍ نسبياً في تاريخه العام وذكر معلومات قيمة عن قبائل الموحدين التي كان لها دور كبير في أعمال الدولة الموحدية. كما وردت فيه إشارات هامة عن الولاة والقادة العسكريين.

وأخيراً لم أجد شيئاً يتعلق بالنظم الموحدية في الكتب التي اختصت بدولة جاءت بعد الموحدين فلم أرجع إليها إلا في تحقيق خبر يتعلق بالقضية التي تؤرخ لها. ومن هذا النوع **اللمحة البدرية في الدولة النصرية**[1] لابن الخطيب **والذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**[2] لمؤلف مجهول، **والمؤنس في أخبار إفريقية وتونس**[3] لـ عبد الله محمد بن أبي القاسم بن أبي دينار الرعيني (ت 1110 / 1698).

أما كتب المشارقة التاريخية فإنها قلما تتعرض لأخبار المغرب. غير أن أبا الحسن علي بن محمد بن الأثير الشيباني (ت 630 / 1233) قد سرد أخباراً غير يسيرة عن الموحدين في كتابه **الكامل في التاريخ**[4]. فأورد معلومات عن تنظيمات الموحدين الحزبية ونظمهم السياسية، ومن الملاحظ أن ابن الأثير كان كلفاً بأخبار إفريقية (تونس)، فأفاد كثيراً عن أخبار هذه الولاية الموحدية.

ومن الكتب المشرقية التي اختصت بدولة الموحدين أفدنا من الوثائق التي أوردها أبو القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة (ت 665 / 1267) في مؤلفه **الروضتين في أخبار الدولتين**[5] عن سفارة ابن منقذ من قبل صلاح الدين الأيوبي إلى المنصور الموحدي عن طريقة استقبال رسل الدول الأجنبية كما أمد بمعلومات

(1) طبعة محب الدين الخطيب (القاهرة، المطبعة السلفية، 1347 هـ) وسنشير إليه بـ **اللمحة البدرية**.

(2) طبعة الجزائر، 1920 م وسنشير إليه بـ **الذخيرة السنية**.

(3) طبعة مطبعة الدولة التونسية، 1286 هـ وسنشير إليه بـ **المؤنس**.

(4) طبعة دار صادر ودار بيروت (بيروت، 1967 م) وسنشير إليه بـ **الكامل**.

(5) طبعة مطبعة وادي النيل (القاهرة، 1287 - 1288 هـ) وسنشير إليه بـ **الروضتين**.

قيمة عن دخول الأغزاز المصريين إلى المغرب. وقد نقل معلوماته هذه جمال الدين محمد بن سالم بن واصل (ت 697 / 1298) في **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**[1].

التراجم:

لقد اتبعت كتب التراجم العامة منهجاً واحداً، **فهي** تذكر اسم المترجم له كاملاً وكنيته ونسبته وبلده الذي ولد فيه أو الذي منه أصله والبلد الذي نزله إن رحل إلى آخر ثم تبين شيوخه وعلومه ومن عنه أخذ وتختتم الترجمة بتاريخ الوفاة والمولد والمكان ما تيسر ذلك. وعليه فإن قيمتها في هذه الدراسة قليلة. ومن هذا القبيل التكملة **لكتاب الصلة**[2] لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي ابن الآبار (ت 658 / 1260) **وصلة الصلة لأبي** جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير (ت 708 / 1308). غير أن بعض المصنفين كان يستطر فيورد أخباراً تاريخية هامة مثل ابن الآبار في **الحلة السيراء** وأبي عبد الله محمد بن عبد الملك المراكشي (ت 703 / 1303) في **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**[3] وأبي العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت 1041 / 1631) **في نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**[4]. وفي استطراداتهم ذكروا أخباراً هامة تتعلق بالنظم الموحدية، لم نظفر بها في كتب التاريخ العام. مثل الرسالة التي أوردها ابن عبد الملك والتي تؤكد أن لقب قاضي الجماعة أطلقه

(1) طبعة المطبعة الأميرية (القاهرة، 1953 - 1957 م) وسنشير إليه بـ **مفرح الكروب**.

(2) طبعة كوديرا (مدريد: 1888 - 1889 م) وسنشير إليه بـ **التكملة**.

(3) رجعنا إلى الجزئين اللذين حققهما إحسان عباس (بيروت، دار الثقافة، 1964 — 1965 م). وسنشير إلى هذا المصدر بـ **الذيل والتكملة**.

(4) رجعنا إلى طبعتين مختلفتين من نفح الطيب هما طبعة أحمد فريد الرفاعي (القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، لا. ت) وأشرنا إليها بـ **نفح** (الرفاعي) وطبعة محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، 1949 م) وأشرنا إليها بـ **نفح** (محي الدين).

الموحدون على قاضي العاصمة. ومثل المعلومات السياسية والإدارية والمالية التي أوردها المقري بنقوله المطولة عن مصادر فقدت. فمن النوع الأول نقوله عن المغرب لابن سعيد المغربي ورسالة أبي يحيى ابن المعلم الطنجي في تفضيل المغرب على الأندلس. ومن النوع الثاني اقتباساته الطويلة عن رحلة تاج الدين بن حموية السرخسي المغربية التي قام بها في خلافة المنصور الموحدي.

وأما كتب التراجم التي اختصت برجال مدينة نظير **عنوان الدراية فيمن عرف من علماء المائة السابعة في بجاية**[1] لأبي العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني (ت 714 / 1315) **والإحاطة في أخبار غرناطة** لابن الخطيب، أو نسب مثل كتاب **الأنساب في معرفة الأصحاب**[2] لمؤلف مجهول، أو طبقات المجتمع من أدباء مثل **أعتاب الكتاب**[3] لابن الآبار **والغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة**[4] **وكتاب اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلي**[5] لأبي الحسن بن علي بن موسى بن سعيد المغربي (ت 685 / 1286)، وفقهاء مثل **الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب**[6] لإبراهيم بن علي بن فرحون (ت 799 / 1396) **ونيل الابتهاج بتطريز الديباج**[7] لأحمد بابا التنبكتي (ت 963 / 1532) ومتصوفة نظير **التشوف إلى رجال التصوف**[8] ليوسف بن يحيى بن الزيات التادلي (ت 627 / 1230) أو كتب برامج مثل **برنامج شيوخ الرعيني**[9] فإن كل

(1) طبعة المطبعة الثعالبية (الجزائر، 1328 هـ) وأشرنا إليها بـ **عنوان الدراية**.

(2) نشره ليفي بروفنسال ضمن كتاب البيذق: **أخبار المهدي وابتداء دولة الموحدين** (باريز، 1928 م) وسنشير إليه بـ **أخبار المهدي** أيضاً.

(3) طبعة صالح الأشتر (دمشق: 1961 م).

(4) طبعة إبراهيم الأبياري (القاهرة، دار المعارف، 1954 م) وسنشير إليه بـ **الغصون اليانعة**.

(5) طبعة إبراهيم الأبياري (القاهرة، 1959 م) وسنشير إليه بـ **اختصار القدح**.

(6) طبعة مطبعة المعاهدة (القاهرة، 1351 هـ) وسنشير إليه بـ **الديباج**.

(7) الطبعة التي رجعنا إليها من حاشية الديباج وأشرنا إلى المصدر بـ **نيل الابتهاج**.

(8) طبعة أدولف فور (الرباط 1962 م) وسنشير إليه بـ **التشوف**.

(9) حققه إبراهيم شبوح (دمشق، 1962 م) وسنشير إليه بـ **برنامج الرعيني**.

هذه المصنفات لم تفد إلا في فصلي الإدارة والخطط الدينية لأنها ترجمت لرجال فيهم من تولوا وظائف في تلك النظم.

غير أن كتاب التشوف لابن الزيات كان خيبة أمل كبرى. فعلى الرغم من أن ابن الزيات عني بالترجمة لرجال عاشوا في الفترة الموحدية، إلا أن معلوماته كانت عن كرامات الأولياء وقصص المتوصفة. ولم أظفر فيه إلا على إشارة واحدة تتعلق بسلطات قاضي الجماعة.

وحري بنا أن ننوه بأحد هذه الكتب، وهو **الإنساب في معرفة الأصحاب**، فقد أمدنا المؤلف المجهول بمعلومات ضافية عن تنظيمات الموحدين لم نجدها في مصدر غيره.

وأما الفائدة العظمى من كتب التراجم المشرقية فقد كانت من **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**[1] لأبي العباس أحمد بن خلكان (ت 681 / 1282)، وابن خلكان كان معاصراً للدولة الموحدية، فترجم لخلفائها تراجم طويلة نسبياً مستفيداً من الكتب المشرقية والمغربية وروايات مباشرة عن الراحلين من المغرب إلى المشرق، فأفاد في النظم السياسية والعسكرية والمالية بكثير من الروايات.

الجغرافية والرحلات:

كان أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسي (ت 562 / 1166) معاصراً لفترة تأسيس الدولة الموحدية، فأورد في نزهته[2] أخبار العرب الهلالية الذين أصبحوا فيما بعد عنصراً أساسياً في الجيش الموحدي. ولكن المؤلف المجهول الذي كتب **الاستبصار في عجائب الأمصار**[3] حوالي سنة 587 / 1191 وعمل في دواوين الموحدين فقد أمد بكثير من المعلومات عن إصلاحات الموحدين

(1) طبعة محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة، 1948 - 1949) وأشرنا إلى هذا المصدر بـ **وفيات الأعيان**.

(2) نظرنا فيما نشر بيريس عن وصف إفريقية الشمالية والصحراوية (ط. الجزائر، 1957 م).

(3) حقق هذا الكتاب سعد زغلول عبد الحميد (ط. الإسكندرية، 58) وأشرنا إليه بـ **الاستبصار**.

العمرانية. كما حرص بوجه خاص على ذكر أحوال المغرب الاقتصادية.

وجاءت الفائدة في الكتب المتأخرة من رحلة أبي عبد الله محمد بن محمد ابن أحمد التيجاني (ت 717 / 1317)[1] غير أن أخباره كانت مقتصرة على منطقة إفريقية (تونس). ولكن الاستفادة الكبرى كانت من **الروض المعطار**[2] لأبي عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري الذي صنف كتابه سنة 866 / 1462 فقد أشار إلى أثر الصراع بين شيوخ الموحدين على مصير الدولة. كما أنه المصدر الوحيد الذي يزود بمعلومات وافية نسبياً عن الأسطول الموحدي لا سيما عدته وسفنه.

الموسوعات والنظم:

رجعنا إلى كتابين من كتب الموسوعات: الأول لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت 723 / 1337): **وهو نهاية الأرب في فنون الأدب**. واستفدنا من القسم التاريخي المتعلق بالمغرب[3]. ويبدو أن ما جاء فيه عن الموحدين ما هو إلا اقتباساً عن ابن الأثير وعبد الواحد المراكشي وابن خلكان، والكتاب الثاني لشهاب الدين أحمد بن علي القلقشندي (ت 821 / 1418) وهو **صبح الأعشى في كتابة الإنشا**[4]، فقد أورد عدداً من الرسائل الموحدية، كما شرح طريقة الموحدين في كتابة رسائلهم.

وأما كتب النظم فقد أفادت فائدة محسوسة، فأفاد كتاب **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**[5] لعلي بن محمد بن حبيب الماوردي (ت 450 / 1058) إذ

(1) حقق هذه الرحلة حسن حسني عبد الوهاب ونشرها بعنوان رحلة التيجاني وقد أشرنا إليها بـ الرحلة.

(2) نشر ليفي بروفنسال وصف الأندلس بعنوان: **صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار** (القاهرة، 1937 م) وأشرنا إليه في هذه الدراسة بـ **الروض المعطار**.

(3) نشر هذا القسم جسبارو ريميرو (غرناطا، 1919 م).

(4) طبعة دار الكتب المصرية، 1913 — 1919 م.

(5) طبعة مطبعة مصطفى البابي الحلبي (القاهرة، 1966 م).

من خلاله استطعنا أن نقارن بين أفكار الموحدين وآراء أهل السنة. وزودنا أبو الحسن علي بن عبد الله بن الحسن النباهي (ت أواخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي) بمعلومات قيمة عن القضاء في المغرب والأندلس من خلال كتابه **المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا**[1]. وكان كتاب أبي الحسن علي ابن يوسف الحكيم الموسوم **بالدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة**، خير عون في دراسة السكة الموحدية ولا سيما وأن الرجل كان متخصصاً في شئون النقود وصناعتها[2].

الدراسات.

أ ـ العربية:

من الدراسات العربية لم تظفر الدولة الموحدية بدارس يبحث في نظمها ولكن وجدت من يقف عند بعض مظاهرها الحضارية فقد كتب محمد المنوني عن العلوم والآداب والفنون في عهد الموحدين[3]. وجمع مادة غير يسيرة ولكنها تفتقر للتحليل. وقد أفادت كثيراً البحث لا سيما في البحث عن عدة الجيش والأسطول والنظام المالي عند الموحدين.

وأما دراسة تاريخ الموحدين فقد ظهرت فيه عدة كتب. فعالجه بعض الدارسين ضمن تاريخ المغرب العام أو قرنه مع تاريخ المرابطين أو درس فترة منه. ومن خلال الدراسة التاريخية العامة تعرض أولئك الدارسون للنظم بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

(1) نشر بعنوان **تاريخ قضاة الأندلس** (بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع) وقد أشرنا إليه في هذه الدراسة بـ **المرقبة العليا**.

(2) أنظر: **الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة** (تحقيق: حسين مؤنس، مدريد، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، 1960 م) ص 3 وسنشير إليه بـ **الدوحة المشتبكة**.

(3) **العلوم والآداب والفنون في عهد الموحدين**، تطوان، المطبعة المهدية، 1950 م. وقد أشرنا إليه بـ **العلوم والآداب**.

ومن الذين عالجوا التاريخ الموحدي ضمن التاريخ العام للمغرب أحمد ابن خالد الناصري في **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى** وما أورده عن التاريخ الموحدي مستقى عن مصادر قديمة هي بين أيدينا[1]. وكتب إبراهيم حركات: **المغرب عبر التاريخ**[2]. وعالج فيه نظم الموحدين، ولكنه يجنح نحو الأحكام المتسرعة قبل أن يستقصي مادته. وألف السيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير[3]، وجاءت فصوله عن التاريخ السياسي ضعيفة ومرتبكة، وقيمة ما كتب تظهر في الفصل الذي أفرده للعمران الموحدي، وكان كتابه ذا فائدة كبيرة في دراسة الحصون الموحدية.

وأول الكتب التي قرنت بين التاريخين المرابطي والموحدي كتاب **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين** ليوسف أشباخ[4]. وقد ذيله بفصل عن تنظيمات الموحدين ونظمهم. ويعتمد في مادته أساساً على روض القرطاس والحلل الموشية، فلهذا فإن أحكامه تحتاج إلى تعديل بعد ظهور المن بالإمامة ونظم الجمان والبيان المغرب في قسمه الموحدي.

وألف محمد عبد الله عنان **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس**[5]. وترسم خطى يوسف أشباخ، غير أنه استفاد من ثلاثة مصادر لم ترد عند أشباخ وهي المن بالإمامة والبيان المغرب والإحاطة فتوفرت له مادة كثيرة، ولكنه عالج النظم بشكل مجمل.

(1) قمت بدراسة تفصيلية لكتاب الاستقصاء في قسمه الموحدي، فوجدناه يعتمد أساساً على وفيات الأعيان وروض القرطاس والعبر، وفي حالتين على الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي، وفي تسع حالات على رقم الحلل لابن الخطيب. والطبعة التي استخدمت في هذه الدراسة هي طبعة جعفر الناصري ومحمد الناصري (الدار البيضاء، دار الكتاب، 1954 — 1956 م) وسنشير إلى هذا الكتاب بـ **الاستقصا**.

(2) طبعة دار السلمي (الدار البيضاء، 1965 م).

(3) وهو الجزء الثاني من مجلد **المغرب الكبير** (القاهرة، 1966 م).

(4) ترجم هذا الكتاب محمد عبد الله عنان (القاهرة، 1940 — 1941 م) وسنشير إليه بـ **أشباخ**.

(5) الكتاب من قسمين (القاهرة، 1964 م) وسنشير إليه بـ **عنان**.

ومن الدراسات التي خصصت لجانب واحد من تاريخ الموحدين دراسة عبد الله علي علام عن الدعوة الموحدية بالمغرب(1). وقد درس أفكار ابن تومرت دراسة مفصلة ولكنه لم يتبين التطور التاريخي في تنظيمات الموحدين عندما بحث في حكومة ابن تومرت، فقبل الروايات التي تصور تنظيمات الموحدين وكأنها وضعت كلها منذ بداية الحركة الموحدية.

ودرس محمد بن شريفة شخصية أبي المطرف أحمد بن عميرة المخزومي(2). فهيأ صورة حية لحياة أحد كتاب الدولة الموحدية وقضاتها. ومن خلال الكتاب وقفت على نصوص مخطوطة لم تكن في متناولي مثل رسائل ابن عميرة والذيل والتكملة وأفاد بعضها في دراسة الجيش ومسيره وفي الكتاب والقضاة وتنقلاتهم.

وبقية الدراسات التي رجعت إليها لم تختص بالتاريخ الموحدي، ولكنها أسهمت في توضيح فكرة أو شرح حقيقة. ومن هذا النوع دراسة حسن حسني عبد الوهاب عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية(3). فقد وردت فيها معلومات هامة عن السكة الموحدية من خلال دراسة النقود الحفصية.

ودراسة نقولا زيادة عن الحسبة والمحتسب في الإسلام(4)، حيث وقف المؤلف وقفة طويلة ودقيقة عند الحسبة في المغرب والأندلس، لا سيما في العصر المرابطي مما يسر تتبع نظام الحسبة عند الموحدين.

(1) الكتاب بعنوان: **الدعوة الموحدية بالمغرب**، القاهرة، دار المعرفة 1964 م.
ومن الدراسات التي لم نستطع الوقوف عليها: **عصر المنصور الموحدي** لمحمد الرشيد بن الوزير (الرباط، المطبعة المحمدية، 1946 م).

(2) المؤلف بعنوان: **أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي** (الرباط، 1966 م). وسنشير إليه بـ **ابن شريفة**.

(3) عبد الوهاب: **ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية** (تونس، مكتبة تونس، 1964 — 1966) وسنرمز إليها بـ **ورقات**.

(4) زيادة: **الحسبة والمحتسب في الإسلام** (بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1963 م) وسنشير إلى هذه الدراسة بـ **الحسبة والمحتسب**.

ودراسة إبراهيم حركات عن النظم المرابطية(1) التي هيأت فرصة عظيمة لتتبع التطور التاريخي للنظم، إذ أن الفترة الموحدية ما هي إلا امتداد للفترة المرابطية، وتبدل الدول لا يستدعي تغيير المؤسسات ولا يعني الانقطاع التاريخي.

ب ـ الأجنبية:

إن الدراسة الأجنبية الوحيدة التي عالجت النظم الموحدية في شيء من التفصيل هي دراسة هويكنز عن **الحكومة الإسلامية في العصر الوسيط عند البربر**(2). وفي هذا الكتاب أفرد المؤلف فصلاً لتنظيمات الموحدين، ودرسها دراسة اجتماعية شاملة. ولكنه لم يميز بين بداياتها والتغييرات التي طرأت عليها، ولم يهتم بالنظم الموحدية إلا في أحيان قليلة.

ودرس هويسي ميراندا التاريخ السياسي للدولة الموحدية(3). فجاءت دراسته شاملة للمصادر المتوفرة مع تحليل دقيق للروايات. ومن خلال التاريخ السياسي تعرض للنظم الموحدية إدارية وعسكرية ومالية وقد استفدت كثيراً من النتائج التي خلص إليها. إلا أن دراسته لتنظيمات الموحدين لم تأت بمستوى الموضوعات الأخرى فلم يفصل فيها القول.

ونبه جوليان(4)، في كتابه عن تاريخ إفريقية الشمالية إلى شيئين هامين في

(1) حركات: **النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين** (الدار البيضاء، لا. ت.) وسنشير إلى هذه الدراسة بـ **النظام السياسي**.

(2) Hopkins, J.F.P; **Medieval Muslim Governement in Barbary** (London, 1958).
وسنشير إلى هذه الدراسة بـ Hopkins.

(3) Huici Miranda, A.; **Historia Politica del Imperio Almohade** (Tetuan, 1956-57).
وسنشير إلى هذه الدراسة بـ Huici.

(4) Julien, C.A.; **Histoire de L'Afrique du Nord** (Paris, 1956).
وسنشير إلى هذه الدراسة بـ Julien.

دراسة أفكار ابن تومرت: أولاً التنوع في أفكار ابن تومرت. وثانياً محاولات ابن تومرت للاقتداء بالرسول في أقواله وأفعاله وتنظيماته.

واعتمدت على تراس[1] في أمر واحد هو محاولة معرفة التنظيمات البربرية المعاصرة، كمحاولة للكشف عن تنظيمات قبائل الموحدين، حتى يمكن تبين درجة تأثر ابن تومرت بها في تكوين تنظيماته.

(1) Terrasse, H.; **Histoire du Maroc (Casablanca, 1949-1950).**

وسنشير إلى هذه الدراسة بـ Terrasse.

الفصل الأوّل

مَدخَل تَارِيخي

من المفيد أن نلم بالأحوال السياسية لدولة الموحدين في شكل إجمالي، فذلك يعين على تفهم نشوء تنظيماتهم وتطورها، ذلك بأن التنظيمات هي أداة السياسة التنفيذية. فلا مندوحة للدارس لإحداهما من تفهم الأخرى، فكلتاهما وجه لظاهرة حضارية واحدة هي الدولة وكل منهما تفعل في الأخرى وتنفعل بها.

الأحوال السياسية قبل الموحدين:

قامت ثورة الموحدين في مطلع القرن السادس / الثاني عشر، وقبل أن ينتصف ذلك القرن كان الموحدون قد نجحوا في تأسيس دولتهم. فولدت تلك الدولة في عصر شهد فيه العالم الإسلامي الزحف الأوروبي على دياره. فمنذ مطلع القرن الخامس / الحادي عشر، اتسع نطاق حملات الاستعادة في إسبانيا ومع ختامه بدأت الحملة الصليبية على المشرق، وقد أثر الحدثان في مسيرة التاريخ في المنطقتين لقرون تلت. ففي المشرق فشلت الإمارات السلجوقية والخلافة الفاطمية في التصدي للتحدي فأخذ الراية الزنكيون فالأيوبيون ثم المماليك. وعاصر الموحدون ضعف الفاطميين وسقوطهم، وقيام الأيوبيين وانحلال دولتهم.

ومنذ أن اضمحلت دولة الأمويين في قرطبة مطلع القرن الخامس / الحادي عشر شابهت أحوال المغرب العربي أوضاع المشرق تمزقاً وانقساماً. فعصفت النزاعات القبلية بالمغرب الأقصى والخلافات الشخصية والإقليمية بالأندلس. ومنذ منتصف ذلك القرن استطاع المرابطون توحيد المغرب

الأقصى، وأسسوا دولتهم. بينما وجد نصارى إسبانيا المتحفزون في الشمال في اختلاف ملوك الطوائف فرصة اغتنموها، فزحفوا على أراضي المسلمين وبلغوا ذروة نجاحهم يوم استولت قشتالة على طليطلة (478 / 1085) واتخذتها حاضرة، وزحفت أرغون على سرقسطة وحصرتها. فأفاقت الزعامات الإسلامية المتناحرة من غفوتها وتبينت الخطر الذي دهمها، ولم تجد من سبيل سوى الاستغاثة بالمرابطين في المغرب، فأنجدهم يوسف بن تاشفين، وأحرز نصراً كبيراً على النصارى بهزيمتهم في واقعة الزلاقة (479 / 1086) ثم ضم الأندلس إلى ملكه. واستطاع المرابطون الحد من الخطر النصراني وتفوقوا عليه أمداً غير يسير حتى خسروا سرقسطة (512 / 1118) التي غدت عاصمة لأرغون. وتبع ذلك ثورة الموحدين بالمغرب (515 /1121)، فواجه المرابطون وضعاً متأزماً في الداخل وخطراً متربصاً من الخارج. ففي بداية الأمر أولوا الخطر الخارجي جلّ أمرهم فتفاقم الوضع الداخلي، ولما توجهوا نحوه بثقلهم خرجت الأندلس من أيديهم ودخلت في عهد طوائف ثان، وبعد فترة قصيرة فقدوا المغرب نفسه وخلفهم على حكمه الموحدون يوم استولوا على عاصمتهم مراكش.

وفي هذا العصر لم يكن حال المغربين الأدنى والأوسط بأحسن من الأندلس فقد خلف الصنهاجيون العبيديين على حكمهما: بنو باديس في المهدية وبنو حماد في بجاية. وفي عهدهم نزحت القبائل الهلالية من مصر إلى إفريقية بتدبير من الفاطميين لما نقموا على بني باديس قطعهم الخطبة عنهم وتحويلها إلى العباسيين[1]. وعاثت تلك القبائل في المنطقة من برقة إلى بجاية خراباً ودماراً[2]، وتوجته بخراب القيروان عاصمة بني باديس الذين اتخذوا المهدية عاصمة جديدة[3]. ولئن أضعف قدوم العرب إلى المنطقة إمارتي الصنهاجيين

(1) **المعجب** ص 204 ـ 206، **البيان المغرب** (ط. دار الثقافة) جـ 1 ص 417 **الرحلة** ص 17 ومـا بعدها، **العبر** جـ 6 ص 30، **الاستقصاء** جـ 2 ص 165.

(2) راجع: **نزهة المشتاق** ص 89، 90، 100

(3) **المعجب** ص 224.

فقد أطمع ذلك النورمان من صقلية في الساحل الإفريقي فشرعوا في احتلال مدنه وحصنوه بحيث بلغت سيطرتهم مداها باستيلائهم على المهدية عام (543 / 1148)[1]. وبسط الصقليون نفوذهم على المنطقة حتى أخرجهم الموحدون عنها.

وهكذا قامت ثورة الموحدين وتصاعدت في وقت ضعفت فيه دولة المرابطين بالمغرب واشتد الزحف المسيحي في إسبانيا وتعرضت إفريقية للزحف الهلالي وما أعقبه من سيطرة نورماندي صقلية.

تأسيس الدولة الموحدية:

مؤسس دعوة الموحدين وواضع أسس دولتهم هو محمد بن عبد الله تومرت[2] **من هرغة إحدى قبائل المصامدة في السوس الأقصى**[3]. وعلى الأرجح أنه ولد حوالي عام (475/1082)[4] في رباط إيجيليز من

(1) راجع دراسة دكتور إحسان عباس عن هذه الهجرات وأثرها في مؤلفه **تاريخ ليبيا** ص 141 وما بعدها.

(2) تكاد أن تجمع المصادر على اسمه واسم أبيه وينفرد المراكشي فيقول إن اسمه محمد بن عبد الله بن تومرت (**المعجب** ص 178) ولـم ترد كلمة تومرت اسماً لجده في روايات نسبه المختلفة ويذكر ابن القطان وصاحب الحلل الموشية أن تومرت لقب لوالده (**نظم الجمان** ص 35، **الحلل الموشية** ص 85) ويرى ليفي بروفنسال أنها اسم لإحدى جداته فغلبت على نسبه ويذهب إلى أن اسمي محمد وعبد الله استبدل بهما اسمه واسم أبيه البربريين في وقت لاحق (**الإسلام في المغرب والأندلس** ص 264 — 265) وهـذا أمر لا نستبعده.

(3) تكاد أن تجمع المصادر على ذلك ويضيف بعضها نسباً علوياً إلى نسبته الأمر الذي شك فيه بعض المؤرخين وأنكره آخرون في القديم والحديث ولنا عودة إلى ذلك في شيء من التفصيل في مناقشة نظام الخلافة.

(4) لا نملك سوى رواية واحدة عن مولده أوردها ابن خلكان وحدد تاريخ ذلك بيوم عاشوراء (485 / 1029) ولكن ابن القطان ـ وعنه يأخذ ابن عذاري ـ ذكر أن ابن تومرت توفي عام (524 / 1130) ولـه خمسون سنة، وعليه يكون مولده عام (475 / 1082) وهـذا أمر نرجحه لأن ابن تومرت أعلن مهديته عام (515 / 1121) ويكـون عمره مقارباً لسن النبوة والرجل

هـرغة[1]، وتعلم في مكتب قـريته[2] ومـع مختتم القرن الخـامس/ مـطلع القـرن الثـاني عشـر جـاز إلى قـرطبـة ولم يستقـر بهـا إلا يسيـراً فـواصـل رحلتـه إلى المشـرق[3]. ولا تسعفنا المصـادر بشيـوخـه في المغـرب أو الأنـدلس، وتختلف الروايات في شيوخه بالمشرق[4]. ورجـع من المشرق عـام (1116/510)[5]. بحراً متفجراً من العلم وشهابـاً وارياً من الـدين[6]. فصيحاً في لسـان العرب والبـربر، عارفاً بأصول الدين والفقه، حافظاً للحديث متصفاً بـالورع والنسـك[7]، متحمساً لمذهب الأشعري[8].

إن رحلة القفول إلى المغرب تمثل بداية ثورته، ويبدو أن ابن تومرت عاد إلى موطنه وهو يظن نفسه مبعوث العناية الإلٓهية على رأس المائة السادسة تأثراً بالحديث «إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها»[9]، وحرص على ربط حركته بأبي حامد الغزالي[10] ليعتبر وريثه في

= كثيراً ما كان يحتذي بخطوات النبي، راجع: **وفيـات الأعيان** جـ 4 ص 144 **نظم الجمان** ص 74، **البيان المغرب** (ط. دار الثقافة) جـ 4 ص 84.

(1) اختلفت المصادر في اسم القرية، راجع: **المعجب** ص 178، : **نظم الجمان** ص 37، **الدعوة الموحدية بالمغرب** ص 35.

(2) **نظم الجمان** ص 37، **العبر** جـ 6 ص 465.

(3) **نظم الجمان** ص 4 ووهـم ابن خلدون وجعلها في رأس المائة الخامسة: **العبر** جـ 6 ص 465.

(4) أنظر **المعجب** ص 178، **الكامل في التاريخ** جـ 10 ص 569، **وفيات الأعيان** جـ 4 ص 137، **الحلل الموشية** ص 85، **نهاية الأرب** ص 189،

Terrasse; p. 267

(5) تختلف الروايات في تاريخ رجوع ابن تومرت إلى المغرب قارن روايات: **الكامل** جـ 10 ص 570، **وفيات الأعيان** جـ 4 ص 138، **نظم الجمان** ص 21 **روض القرطاس** ص 111.

(6) **العبر** جـ 6 ص 466.

(7) **الكامل**، جـ 10 ص 569، **وفيات الأعيان** جـ 4 ص 137، **روض القرطاس** ص 111.

(8) **المعجب** ص 184، **العبر** جـ 1 ص 412، جـ 6 ص 466.

(9) **إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين** جـ 1 ص 26.

(10) من هذا القبيل قصة لقاء ابن تومرت للغزالي وأخذه عنه والتي أرجح أنها وضعت في أيام

التجديد ولا سيما وأن المجددين في قرنٍ قد يكونون غير واحد[1]. وحرص عبد المؤمن على تأكيد تلك الصلة بين إمامه وحجة الإسلام[2]. وكان ابن تومرت طوال رحلته راجعاً إلى المغرب كثير الجلوس للوعظ والإرشاد، عظيم الالتزام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالرغم من كل ضنك أصابه أو أذى لحقه. فاشتهر بالعلم والعمل، واستطاع أن يختار نجباء الطلاب المتصفين بالذكاء المتقد، والصبر على المكاره، من أمثال عبد الواحد الشرقي وأبي محمد البشير الوانشريسي وعبد المؤمن بن علي، وكلهم لعب دوراً بارزاً في تأسيس الدولة.

= ابن تومرت وربما كان هو واضع أصولها فمصادر أنصار الدعوة تؤكدها (أنظر **نظم الجمان** ص 17 — 18، **الحلل الموشية** ص 85 — 86، **البيان المغرب** (ط. دار الثقافة) جـ 4 ص 59، **روض القرطاس** ص 110 — 111 وابـن الجوزي فيما نقله عن الذهبي (أنظر: **سيرة الغزالي** ص 71 نقلاً عن مخطوط دار الكتب المصرية) ، ولكن عبد الواحد المراكشي يشك فيها (**المعجب** ص 178). وكذلك ابن خلدون في **العبر** (جـ 6 ص 466)، ابن الأثير ينفي الأمر نفياً قاطعاً (**الكامل** جـ 10 ص 569) ونكاد نقطع أن الأمر كما قال ابن الأثير لثلاثة أسباب:

أولاً: أغلب الروايات المثبتة جاءت من أنصار الدعوة الموحدية أو من أخذ عنهم.

ثانياً: لم يكن الغزالي بالشام أو العراق أيام رحلة ابن تومرت، وقد كان بخراسان منذ 493-505 حيث توفي (**سيرة الغزالي** ص 17، 24) ولم يزر ابن تومرت خرسان.

ثالثاً: يبدو أن عبد المؤمن بن علي خليفة ابن تومرت كان شاكاً في الأمر، وكان يسأل ليتأكد، فقد سأل ابن العربي (**الحلل الموشية** ص 122-123، **روض القرطاس** ص 124) بينما لم يكن ابن العربي بالمشرق أيام كان ابن تومرت فيه (أنظر رحلة ابن العربي في **وفيات الأعيان** جـ 3 ص 423-424).

(1) أنظر مناقشة السيد المرتضى الزبيدي للحديث السابق ورأي الفقهاء في تعدد المجددين في القرن الواحد في كتاب **إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين** جـ 1 26 — 27.

(2) سبق وذكرنا سؤال عبد المؤمن لابن العربي (من هنا أعلاه ص 36 تعليق رقم 10) وذكر الذهبي «قال عبد الله بن الأثيري (كذا) سمعت عبد المؤمن بن علي القسي (كذا) سمعت أبا عبد الله بن تومرت يقول: أبو حامد الغزالي قرع الباب وفتح لنا» (**سيرة الغزالي** ص 71).

ولهذا اعتبرنا عودته من المشرق إلى المغرب بداية حركته ولا سيما وأن ابن تومرت كان يسأل عن أخبار جبل درن موطن المصامدة[1].

ولما وصل مراكش عام (514 / 1120)[2] دخلت دعوته في طور جديد، فاتخذ مما اعتبره مفاسد الطبقة العليا مادة لوعظه، وهدفاً لأمره ونهيه، فكثر أتباعه. وبعد وقت قصير اضطره المرابطون إلى الخروج من مراكش[3]، فسار إلى أغمات. وفيها تبلور التحول في أسلوبه فخلع بيعة علي بن يوسف من أعناق تابعيه[4]. وعندها دخل مرحلة الثورة ثم سار إلى موطن قبيلته ونزل رباط إيجيليز سنة (514 / 1120)[5] وقد وفق في اختيار موضع ثورته. فالمصامدة هم عصبيته والمغرب «إذ ذاك وفي كل وقت هو القبائل»[6].

والمصامدة بوجه خاص لم يكونوا على وئام مع المرابطين الذين بنوا عاصمتهم

---

(1) **أخبار المهدي** ص 57.

(2) **الحلل الموشية** ص 82، **روض القرطاس** ص 110.

(3) اختلفت المصادر في صورة أحداث مراكش وكيفية إخراجه منها. راجع في ذلك: **أخبار المهدي** ص 67 — 70، **الكامل** جـ 10 ص 571 **وفيات الأعيان** جـ 4 ص 140 — 141، **الحلل الموشية** ص 82، **روض القرطاس** ص 112 — 113.

(4) أنظر رواية ابن الراعي في **نظم الجمان**، ص 29.

(5) **أخبار المهدي** ص 72، **الكامل**، جـ 10 ص 571، **نهاية الأرب** ص 190 — 191، وذكر صاحب الحلل ذلك في سنة 510 / 1116 وهو مناقض لما ذكره من قبل عن قدومه مراكش من المشرق في سنة 514 / 1120 (أنظر أعلاه من هنا تعليق رقم 3 وقابله **بالحلل الموشية** ص 85). وابن القطان لا يورد إلا رواية ابن الراعي الذي يقول بسنة 515 / 1121، وفي النظم سقط أرجح أن روايات أخرى ذهبت فيه (أنظر **نظم الجمان** ص 29) وابن خلدون يتفق مع رواية ابن الراعي (**العبر** جـ 6 ص 469). وهنا تجدر الإشارة إلى أن المراكشي وابن خلكان وصاحب الروض في إحدى رواياته يغفلون أمر إيجيليز وينسبون أحداثها لفترة تينملل (**المعجب** ص 187، **وفيات الأعيان** جـ 4 ص 141 — 142، **روض القرطاس** ص 113) ويبدو أن الأمر اختلط عليهم لأن ابن تومرت ذهب إلى تينملل في طريقه إلى إيجيليز (**أخبار المهدي** ص 72) فظنوا ذهابه الأول ذهاب استقرار.

(6) كنون، عبد الله، **النبوغ المغربي** جـ 1 ص 103

مراكش بالقرب منهم ليذللوا من صعابهم[1]. وفي إيجيليز بدأ في تنظيم أتباعه. وظل عاماً يعظ ويذكر بأيام الله، ويهاجم الحكام لما استحدثوا من باطل، وأفشوا من ظلم، ويحض على الخروج عليهم ويوجب قتالهم لكفرهم، فتسامع به أهل الجبل فجاؤه أفواجاً[2]. ويذكر بالمهدي الذي أخبر عنه النبي ويتلو الأحاديث في شأنه ويشوقهم لظهوره وميقاته[3]. فلما أسلسوا له القيادة واستوثق من قبيلته ومنعة موضعه، أعلن مهديته[4] في رمضان 515 / 1121 [5] فبايعه أصحابه[6]، فدخلت دعوته في طور ثالث، هو مقارعة المرابطين بحد السلاح لاجتثاث حكمهم الباطل حسب رأيه، وإقامة الدولة الرشيدة على هدى التعاليم التي بشر بها أتباعه. ونستطيع أن نفرق بين مرحلتين في تطور ثورة الموحدين في هذا الدور: مرحلة إيجيليز ومرحلة تينملل.

أن فترة إيجيليز امتدت منذ بويع إلى سنة (518 / 1124)[7] عام هاجر إلى

---

(1) **العبر** جـ 6 ص 464.

(2) **الكامل** جـ 10 ص 571.

(3) **المعجب** ص 187.

(4) **نظم الجمان** ص 75، **الحلل الموشية** ص 83، **البيان المغرب** (ط. دار الثقافة) جـ 4 ص 68 واخطأ البيذق وجعلها في تينملل انظر **أخبار المهدي** ص 73.

(5) **نظم الجمان** ص 74، **البيان المغرب** (ط. دار الثقافة) جـ 4 ص 68، **الحلل الموشية** ص 87، **العبر** جـ 6 ص 469، وذكر ابن القطان في إحدى رواياته سنة 1120/514 (**نظم الجمان** ص 74)، وهذه رواية لا تتفق مع ما سبق أن بيناه من أمر هجرته إلى إيجيليز في سنة 1120/514 وبقائه عاماً يعظ وينظم نفسه وأتباعه، وذكرت بعض الروايات في سنة 1122/516 وسنة 1124/518 (راجع: **نظم الجمان** ص 33، **البيان المغرب** (ط. دار الثقافة جـ 4 ص 68 **ومفاخر البربر** ص 59) ويبدو لي أن الأمر اختلط في الرواية الأولى مع بداية حملات المرابطين على الموحدين التي لم تكن إلا في سنة 1122/516 وفي الثانية مع تاريخ الهجرة إلى تينملل. أضف إلى هذا أن البيعات كانت كثيرة في المناسبات وخاصة مع دخول قبائل جديدة.

(6) الحلل الموشية ص 85 ـ 86، 88.

(7) **نظم الجمان** ص 23، **البيان المغرب** (ط. دار الثقافة) جـ 4 ص 68، **العبر** جـ 6 ص 470 =

تينملل. وفي هذه المرحلة عمل على بسط نفوذه على مصامدة جبل درن، ووقف من المرابطين موقفاً دفاعياً واتبع مع المصامدة أسلوبين:

فقد أرسل طلبته دعاة[1]، ومن كابر وغدر أرسل عليه جنده غزاة. فطاعته هرغة وكدميوة وكنفيسة وهنتاتة وقبائل أهل تينملل[2]. وهزم الجيوش التي وجهها المرابطون إليه من السوس ثم مراكش، فغنم أموالاً وأسلحة وهيأت له انتصاراته الأولية دعاية واسعة بين البربر فجاؤه أفواجاً[3]. ولما سمى المرابطون الموحدين خوارجاً شن المهدي دعاية عظيمة عليهم فسماهم الحشم والزراجنة المجسمة[4]، ولما اشتدت عليه هجمات المرابطين طلب مكاناً حصيناً، فهاجر تينملل[5] لأن هزميرة الجبل قد وحّدت[6]. وفي هذه المرحلة من ثورته، طهر صفوفه من العناصر الرخوة أو المشاغبة التي يصعب قيادها[7] وآخى بين الموحدين[8]، وركز على تربيتهم[9]، ويبدو أن خطته العسكرية تحولت في عام 519 / 1125 من الدفاع إلى الهجوم، فأغار جنده على أحواز مراكش ووصلوا أغمات[10]. وفي عام 524 / 1130 ركز هجوماً على مراكش نفسها، لكنه مني

= وصاحب روض القرطاس كعادته في عدم الدقة في ذكر التواريخ ذكر 516 / 1122 أنظر ص 115.

(1) **نظم الجمان** ص 84 ـ 85، **أخبار المهدي** ص 132 ويخطىء في تاريخ ذلك.

(2) **نظم الجمان** ص 92 — 93.

(3) **الكامل** جـ 10 ص 572، **نظم الجمان** ص 81 ـ 84، 87 ـ 89، 90 ـ 91. **الحلل الموشية** ص 84، 90، **العبر** جـ 6 ص 469 — 470.

(4) **نظم الجمان** ص 85، **الحلل الموشية** ص 90 — 91.

(5) عن حصانة تينملل أنظر **نظم الجمان** ص 95، **الحلل الموشية** ص 92.

(6) **نظم الجمان** ص 94.

(7) **الكامل** جـ 10 ص 572 — 576، **نظم الجمان** ص 94، 97، 102 ـ 104، 114، 123، **البيان المغرب** (ط. دار الثقافة) جـ 4 ص 68 ـ 69، **نهاية الأرب** ص 191 — 194.

(8) **أخبار المهدي** ص 37 — 40، **نظم الجمان** ص 97.

(9) **الكامل** جـ 10 ص 572، **نظم الجمان** ص 94.

(10) **البيان المغرب** (ط. دار الثقافة) جـ 4 ص 75.

بهزيمة كبرى، ففقد فيها جنداً كثيراً وقادة عظماء هم نصف مستشاريه العشرة، ولم يلبث بعدها إلا قليلاً حتى توفي[1]. ومنذ أن تحولت خطته إلى الهجوم كانت قائمة على التحصن في الجبال دون النزول إلى السهول إلا للغارات السريعة الخاطفة[2]، فأزعجت غارات الموحدين المرابطين، فبنى المرابطون المراصد قرب مراكش لسد الطرق التي ينزل منها الموحدون إلى الأوطية وقد قام الفلاكي الأندلسي بدور كبير في ذلك[3]، وبلغت خشية المرابطين من الموحدين درجة عظيمة فسوروا مراكش[4].

وبوفاة المهدي تولى عبد المؤمن بن علي القيادة، وقد ورث تركة مثقلة. فهزيمة البحيرة ثم وفاة المهدي أثرتا على الروح المعنوية، فارتدت بعض القبائل، فأقام عبد المؤمن بتينملل يتألف القلوب ويحسن إلى الناس[5]. وأعاد الثقة إلى النفوس فباشر الموحدون حروبهم، ومع أول انتصار أخذ الناس يفدون عليه[6]، فأخضع المرتدين، وبانضمام الفلاكي الأندلسي بدأ الموحدون

(1) أنظر **نظم الجمان** ص 115 وما بعدها، **الحلل الموشية** ص 92، **المعجب** ص 192، 193 **البيان المغرب** (ط. دار الثقافة) جـ 4 ص 75 — 76 ، Huici v. 2, pp. 83 — 84.

(2) **الكامل** جـ 10 ص 576، **نهاية الأرب** ص 194.

(3) **البيان المغرب** (ط. دار الثقافة) جـ 4 ص 75، **الحلل الموشية** ص 92، غير أن ابن القطان يجعل التحصينات في فترة إيجيليز وهذا ما نستبعده لأن هجمات الموحدين بدأت في تينملل (**نظم الجمان** ص 86).

(4) بدأ تسويرها في سنة (520 / 1126) بنصيحة ابن رشد الجد سنة (519 / 1125) أنظر (**البيان المغرب** (ط. دار الثقافة) جـ 4 ص 72-73، 75، **الحلل الموشية** ص 74 ـ 75، 80) ويخطىء ابن الوارق وابن القطان فيجعلانه سنة 522 / 1128 (**مفاخر البربر** ص 53، **نظم الجمان** ص 106 ـ 107) بينما توفي ابن رشد سنة 519 / 1125 (أنظر: **البيان المغرب** (ط. دار الثقافة) جـ 4 ص 74).

(5) **الكامل** جـ 10 ص 578.

(6) أنظر هزيمة الموحدين لابن تاعيشت المرابطي سنة 525 / 1131 في **البيان المغرب** (ط. دار الثقافة) جـ 4 ص 85. وراجع **نظم الجمان** ص 195 ـ 196.

يسيطرون على حصون المرابطين حول أغمات ويبسطون نفوذهم على منطقة السوس، على الرغم من بلاء الجند الرومي المرابطي بقيادة الربرتير[1]. وفي الوقت ذاته كان عبد المؤمن يبعث الطلبة لدعوة القبائل لأمره[2] في محاولة لكسبهم سلمياً. ومنذ سنة 530 / 1136 بدأ الموحدون بشن حملاتهم خارج منطقة السوس، فأغاروا على درعة وزناتة وتادلا في جبل غياثة واشتبكوا مع المرابطين في معارك ضارية[3]. ويبدو أن النجاح الأولي الذي كسبه الموحدون أغرى عبد المؤمن فخرج في سنة 534 / 1139 في حملته «الطويلة الأعوام»[4] التي انتهت بسقوط دولة المرابطين.

وقد تولى تاشفين بن علي أمر المواجهة كقائد أعلى[5]، ثم كأمير بعد وفاة والده في سنة 537 / 1143[6]. وفشل بالرغم من حشده عسكر سجلماسة وبجاية والأندلس[7]، وقتل في خضم الصراع (539 / 1145)[8]. وبالرغم من بلاء الجند

(1) نظم الجمان ص 193، 210 ـ 212، البيان المغرب (ط. دار الثقافة) جـ 4 ص 94.
Huici v; 1 p. 112.

(2) ابن القطان: نظم الجمان ص 212.

(3) اختلفت الروايات في تاريخ هذه الأحداث اختلافاً شديداً، راجع: الكامل؛ جـ 10 ص 578، نظم الجمان ص 225 ـ 226، 229 ـ 232، روض القرطاس 121 ـ 122 البيان المغرب (ط. دار الثقافة) جـ 4 ص 96 ـ 98 وطبعة هويسي جـ 3 ص 11، الحلل الموشية ص 188، واعتمدنا ما رُوي نقلاً عن ابن صاحب الصلاة لقربه من زمن الأحداث.

(4) البيان المغرب، جـ 3 ص 13.

(5) أنظر ابن عذاري: البيان المغرب (ط. دار الثقافة) جـ 4 ص 98 وطبعة هويسي جـ 3 ص 12.

(6) البيان المغرب جـ 3 ص 13 ـ 14، الحلل الموشية ص 106، روض القرطاس ص 107، الإحاطة في أخبار غرناطة جـ 1 ص 455.

(7) البيان المغرب جـ 3 ص 15، الحلل الموشية ص 107 ـ 108.

(8) الكامل جـ 10 ص 579 ـ 580، البيان المغرب جـ 3 ص 16، مفاخر البربر ص 58، الإحاطة جـ 1 ص 462، روض القرطاس ص 108.

الرومي بقيادة الربرتير[1] أخذ الموحدون وهران[2]، ثم تتابع سقوط المدن المرابطية. فسقطت تلمسان (539 / 1145)[3]، وسجلماسة[4]، وفاس 540/ 1145[5]، وسلا[6]، وسبتة[7] وأغمات وطنجة (541 / 1146)[8]، ومراكش (شوال 541 / مارس 1147)[9] ووفدت جميع قبائل المصامدة طائعة لعبد المؤمن. ولكن الحكم الجديد لم يستقر من فوره، فالروح القبلية الكامنة في نفوس المغاربة، حفزها نصر المصامدة فانبعثت في ثورة عاتية عارمة، فقام محمد بن عبد الله بن هود الماسي بالسوس، وتلقب بالهادي وسيطر على البلاد ما عدا مراكش وفاس. واستطاع عبد المؤمن القضاء عليه في ذي الحجة 541/1147[10]، فأغرى نجاح الماسي في البداية قبائل دكالة وبرغواطة فثاروا[11]، وأرادت الجيوب المرابطية استغلال تلك الثورة لاستعادة سلطتها، فقام القاضي عياض في سبتة، وبايع بني غانية في ميورقة، وتحالفوا جميعاً مع دكالة وبرغواطة. ولكن فتنتهم أخمدت وحركتهم تبددت، وخلص الأمر لعبد المؤمن عام 543/1148[12]. ودخلت دولة الموحدين في طور جديد هو عصر الازدهار.

(1) البيان المغرب (ط. دار الثقافة) جـ 4 ص 98.

(2) المصدر ذاته جـ 3 ص 18.

(3) الكامل جـ 10 ص 581، البيان المغرب جـ 3 ص 18، مفاخر البربر ص 58 ـ 59.

(4) البيان المغرب جـ 3 ص 18.

(5) المصدر ذاته جـ 3 ص 19 ـ 20، الحلل الموشية ص 111 ـ 112، الاستبصار ص 182.

(6) الكامل جـ 10 ص 582، الحلل الموشية ص 112، مفاخر البربر ص 59.

(7) البيان المغرب جـ 3 ص 20، مفاخر البربر ص 59.

(8) البيان المغرب جـ 3 ص 23، روض القرطاس ص 123.

(9) أكثر الروايات على ذلك، راجع الاستبصار ص 202، البيان المغرب جـ 3 ص 23، الحلل الموشية ص 114، مفاخر البربر ص 59، الإحاطة جـ 1 ص 192، ولا يخالف إلا المراكشي ويجعل الفتح في سنة 537 / 1143 (المعجب ص 202) وقد بيّنا أن المراكشي كتب في المشرق من ذاكرته ومن الصعوبة بمكان اعتماد ما يورد من تواريخ للأحداث.

(10) البيان المغرب جـ 3 ص 26، الحلل الموشية ص 121، روض القرطاس ص 123.

(11) الكامل جـ 10 ص 585 ـ 586، نهاية الأرب ص 202.

(12) روض القرطاس ص 124.

والعوامل الأساسية التي أدت إلى انتصار الموحدين وسقوط المرابطين تكمن في حاليهما قوة وضعفاً. فالمهدي ابن تومرت بذر بذرته الأولى في تربة المصامدة الساخطين والناقمين على المرابطين، وعرف كيف يصهر قبائلهم في وحدة إدارية وعقائدية، يسرت قيادتهم، وأسعفت على إذكاء روح الحماسة في نفوسهم، فاستهانوا بالصعب واستيسروا العسير(1). وقابلهم عدو مفكك الأوصال، ومنهوك القوة، عصف بكيانه إهمال خلفائه لأمر دولتهم(2)، وانشغال أمرائه بملاذهم(3)، واستبداد كبار الأمراء بالأمر، واستعلاء الفقهاء على الناس(4)، فانهارت الإدارة وضعف الجيش وتخلت قبائل المرابطين عن بعضها في أدق الساعات وأحرج الأوقات(5). فتفوق عليهم جيش الموحدين انضباطاً عسكرياً، وتنظيماً وخططاً حربية(6)، وروحاً وثابة، وعزمة قوية فكان لهم النصر.

عصر الازدهار:

بقضاء عبد المؤمن على الجيوب المرابطية عام 543 / 1148 دخلت دولته في عهد ازدهارها فاتسمت بالتوسع والعمران والرفاه المادي والنهوض الفكري، وشملت هذه الفترة خلافة يوسف ويعقوب المنصور وأكثر خلافة الناصر. (558 - 610 / 1162 — 1213).

(1) لقد وجد ابن خلدون خير مثال في الدعوة الموحدية في نظرته عن العصبية والدعوة الدينية وأثرهما في قيام الدول أنظر العبر جـ 1 ص 382 - 383.
(2) يقول ابن عذاري عن علي بن يوسف في آخر أمره «امتنع عن الإعطاء لأجناده حتى رجع أكثرهم يكرون دوابهم» **البيان المغرب** (ط. دار الثقافة) جـ 4 ص 102.
(3) أنظر مقتل سير بن علي في **نظم الجمان** ص 245.
(4) **المعجب** ص 177، 186.
(5) أنظر كيف انحازت مسوفة للموحدين بعد وفاة علي بن يوسف في **البيان المغرب** جـ 3 ص 13 ـ 14.
(6) **البيان المغرب** (ط. دار الثقافة) جـ 4 ص 99 ـ 100 وطبعة هويسي جـ 3 ص 14، **الحلل الموشية** ص 106 ـ 107.

التوسع:

أثناء حكم علي بن يوسف بدأ حكم المرابطين يضعف في الأندلس، وضغط النصارى يزداد شدة، فأخذت أرغون سرقسطة سنة 512/1118. وبقيام ثورة الموحدين وتصاعدها شُلت حركة المرابطين في الأندلس في بداية الأمر، فاستطاع ابن رذمير أن يخترق الأندلس من شمالها إلى جنوبها في سنة 519 / 1125 من غير مقاومة تذكر(1). وانتعشت مقاومة المرابطين بقدوم تاشفين بن علي سنة 523 / 1129(2) فحد من خطورة الزحف النصراني، وسقاهم من الهزائم كؤوساً(3)، ولكنه استدعي إلى مراكش عام 523 / 1128 بأمر أبيه(4)، وتفاقم أمر الموحدين فسحبت الجيوش المرابطية من الأندلس، فضرب النصارى على جهاتها، وكثر المنتزون(5). فأخذ النصارى أربلية(6) وشنترين وباجه وماردة وأسبونة والمرية وبياسة وجيان وطرطوشة وحصون لاردة(7) وقامت الأندلس على المرابطين في سنة 538 / 1143 (8)، واستبد أهل كل بلد بناحيتهم، ولم يظل على طاعتهم سوى غرناطة وإشبيلية. فقام بشرق الأندلس عبد الرحمن بن عياض، وخلفه محمد بن سعد بن مردنيش، وفي المرية ابن الرميمي، وفي

(1) **الكامل** جـ 1 ص 631، **نظم الجمان** ص 109 ـ 111، **البيان المغرب** (ط. دار الثقافة) جـ 4 ص 69 ـ 72، **الحلل الموشية** ص 75 ـ 79، **الإحاطة** جـ 1 ص 114.
(2) **الباب المغرب** (ط. دار الثقافة) جـ 4 ص 79 ـ 80، **الإحاطة** جـ 1 ص 457، ويحددها صاحب روض القرطاس بسنة 520 / 1126 (ص 106) بينما يذكرها هويسي سنة 522 / 1128 أنظر مقالة «علي بن يوسف وأعماله في الأندلس» تطوان، 1958 ـ 1959 العددان 3، 4 ص 159 ، 175.
(3) راجع **نظم الجمان** ص 181، 182، 197 ـ 198، 200، 201، 215، 217، 218 ـ 222، 227 ـ 228. **البيان المغرب** (ط. دار الثقافة) جـ 4 ص 81، 84، 85، 88 - 89 ، 90 ـ 91، **الإحاطة** جـ 1 ص 531 ـ 459 ـ 460.
(4) **المصادر ذاتها** ص 233، جـ 4 ص 96، جـ 1 ص 531 ـ 532.
(5) **المعجب** ص 208، **الحلل** ص 98 ـ 99.
(6) **نظم الجمان** ص 245.
(7) **الكامل** جـ 11 121 ـ 122، 136، **نهاية الأرب** ص 203.
(8) **الحلل الموشية** ص 109.

جيان ابن همشك، وفي غرب الأندلس أحمد بن قسي وغيرهم كثير[1].

ويبدو أن عبد المؤمن كان يطمع في الأندلس، والمغرب لم يخلص له بعد[2]، ففي أول عام 539 / 1144 بايعه ابن قسي ثم نكث[3]. وفي آخر العام دانت له شريس وطريف والجزيرة الخضراء[4]. وانتصاره في المغرب جعل أعيان غرب الأندلس يتشوفون إلى الموحدين، ويتنافسون في الهجرة إليهم[5]. فجاءت بيعة إشبيلية عام 541 / 1147[6]. ولم يتفرغ عبد المؤمن لأمر الأندلس إلا بعد أن خلص له المغرب عام 543 / 1148. وكان عليه أن يقضي على بقايا المرابطين في قرطبة وغرناطة وابن مردنيش في شرق الأندلس. فوالى إرسال البعوث إليها بقيادة الشيخ أبي حفص عمر الهنتاتي[7]، وتتبع سير الأحوال فيها[8]، ففتحت جيان وقرطبة وقرمونة[9]، وفي 548/ 1153 أرسل لابن مردنيش معذراً منذراً[10]. وفي 1157/552 سلمت غرناطة فانقرض أمر المرابطين في الأندلس وتلتها المرية وبياسة وأبذة[11]. واستغل ابن مردنيش وصهره ابن

(1) المعجب ص 208 ـ 212.
(2) يروي صاحب روض القرطاس (ص 122 - 123) أن عبد المؤمن سير جيشاً إلى شريس وهو محاصر تلمسان.
(3) البيان المغرب (ط. دار الثقافة) جـ 4 ص 105 ويجعله ابن الخطيب سنة 540 / 1145 (أعمال الأعلام (ليفي) ص 251).
(4) أنظر روض القرطاس ص 122 ـ 123.
(5) المعجب ص 212، أعمال الأعلام (طبعة ليفي) ص 265.
(6) الكامل جـ 11 ص 15[illegible]، نهاية الأرب ص 202.
(7) رسائل موحدية ص 11 ـ 13، الكامل جـ 11 ص 150 ـ 151، 156 ـ 157.
(8) المن بالإمامة ص 448، البيان المغرب جـ 3 ص 29 - 30.
(9) رسائل موحدية ص 13 ـ 17، روض القرطاس ص 125.
(10) انظر نص الرسالة في رسائل موحدية ص 35-37،وصبح الأعشى جـ 6 ص 443 ـ 445 وقد أشار يوسف لهذا الخطاب بعد ذلك انظر رسائل موحدية ص 148.
(11) عن هذه الأحداث راجع: رسائل موحدية ص 73-80، الكامل جـ 11 ص 223-224، الإحاطة جـ 1 ص 173 غير أنه في ص 279 يجعلها في سنة 551 / 1156 بينما يوردها صاحب روض القرطاس في سنة 546 / 1151 (ص 126).

همشك وحلفاؤهم النصارى غيبة عبد المؤمن في غزوة إفريقية واستردوا مدناً وحصوناً[1]. فأمر عبد المؤمن ببناء مدينة جبل طارق لتكون مركزاً للموحدين وأعمالهم في الأندلس[2]. ورغم أنه جاز إلى الأندلس في ذي القعدة 555 / 1160 إلا أنه لم يستطع القضاء عليهم أو الحد من فعاليتهم[3]. فلما رجع إلى المغرب تعاظم خطرهم واشتدت فتنتهم حتى دخل ابن همشك غرناطة سنة 557 / 1162 فاستعيدت منه[4]. فشرع عبد المؤمن في الاستعداد لغزوهم وفي أثناء ذلك توفي عام 558 / 1163[5]، فتصاعدت أعمال ابن مردنيش وصهره ابن همشك وحلفائه النصارى[6]. فاختلف ابن همشك مع ابن مردنيش ووحد ابن همشك سنة 564 /1169[7]، فقلب ميزان القوة في شرق الأندلس مما يسر ضمها إلى الموحدين عام 567 / 1172[8]، وخضعت إسبانيا الإسلامية كلها لحكم الموحدين، وبلغ توسعهم مداه في الجبهة الأندلسية في ختام القرن لما ضم الخليفة الناصر منورقة وميورقة ويابسة[9].

(1) راجع المن بالإمامة ص 115 ـ 120، 126 ـ 127، 145 ـ 146، البيان المغرب جـ 3 ص 40 ـ 41، أعمال الأعلام (طبعة ليفي) ص 361.
(2) رسائل موحدية ص 97 ـ 98، المن بالإمامة ص 136 ـ 138.
(3) المن بالإمامة ص 147 ـ 172، البيان المغرب جـ 2 ص 45 ـ 48، الحلل الموشية ص 129، والمراكشي وصاحب روض القرطاس كعادتهما في عدم الدقة في ذكر تاريخ الأحداث يجعل الأول الجواز في سنة 538 / 1144 والثاني يجعله في 556 / 1161 (المعجب ص 226، روض القرطاس ص 130 - 131).
(4) المن بالإمامة ص 187 ـ 202، البيان المغرب جـ 2، ص 50 ـ 54.
(5) المن بالإمامة ص 187 ـ 202، المعجب ص 235، البيان المغرب جـ 3 ص 51، 54 ـ 55.
(6) المن بالإمامة ص 372 ـ 374، البيان المغرب جـ 3 ص 79 ـ 80، 54 ـ 55.
(7) المصدران ذاتهما ص 388 - 390، جـ 3 ص 82.
(8) أنظر أحداث ذلك في المن بالإمامة ص 401 - 407، 461، 470 - 474، المعجب ص 248 - 250، الكامل جـ 11 ص 374، وفيات الأعيان جـ 6 ص 131، البيان المغرب جـ 3 ص 85 ـ 87، 93 ـ 96، أعمال الأعلام (طبعة ليفي) ص 262 ـ 263.
(9) اختلفت المصادر في سنة ذلك راجع المعجب ص 315، البيان المغرب جـ 3 ص 215، روض القرطاس ص 153، نهاية الأرب ص 230، الروض المعطار ص 189.

ومنذ أن أخضع عبد المؤمن المغرب لسلطانه كان اتجاه توسعه في شعبتين: أندلسية وإفريقية. وسار الفتح فيهما في وقت واحد. ففي عام 547 / 1152 فتح مملكة بني حمّاد الصنهاجيين[1]، رغم استنجادهم بالعرب الهلالية من إفريقية[2]، فقد دخل عبد المؤمن بجاية عنوة بمساعدة وزير الصنهاجيين أبي محمد ميمون بن علي بن حمدون[3]. ومنذ عام 551 / 1156 بدأ حكم الصقليين يضعف في إفريقية، وفقدوا سيطرتهم على كثير من المدن، ولم يستطيعوا الحفاظ على المهدية وزويلة إلا ببذل الأموال للعرب الهلالية[4]. ففتح عبد المؤمن في حملته عام 554 — 555 / 1159 — 1160 تونس والمهدية وبلاد الجريد وطرابلس[5]، فوضع حداً لسيطرة النورمان وأخضع القبائل العربية الهلالية.

وإذن ففي عصر الخلفاء الأربعة الأول بلغت الدولة الموحدية أقصى اتساعها من طرابلس شرقاً إلى المحيط غرباً، ومن الصحراء الإفريقية جنوباً[6] إلى جبال الشارات بالأندلس شمالاً. فاحتكت الدولة الموحدية بدول معاصرة كثيرة: دول النصارى في إسبانيا ودولة النورمان في صقلية ودولة الأيوبيين في مصر. وضمت هذه الأرض الشاسعة عناصر متعددة وقبائل متنافرة فكثرت الثورات والفتن.

(1) **رسائل موحدية** ص 17 ـ 22، 26 ـ 34، **الكامل** جـ 11 ص 158، **روض القرطاس** ص 126، غير أن المراكشي يخالف ويجعل كل ذلك عام 540 / 1146 (**المعجب** ص 206).

(2) **رسائل موحدية** ص 29 ـ 32.

(3) المصدر ذاته ص 20، **الحلل الموشية** ص 123 - 124.

(4) الكامل جـ 11 ص 203 ـ 205.

(5) راجع عن هذه الحملة: **رسائل موحدية** ص 101 - 111، **المعجب** ص 228 - 230، **الكامل** جـ 11 ص 241 - 245، **البيان المغرب** جـ 3 ص 39، **الحلل الموشية** ص 128 - 129، **روض القرطاس** ص 129 - 130، **نهاية الأرب** ص 210 - 213.

(6) يقول صاحب كتاب الاستبصار وهو معاصر لفترة الخليفة المنصور أن «كلمة التوحيد والهداية في بلاد الصحراء متصلة من طرابلس إلى مدينة غانة وكوكو» (**الاستبصار** ص 111) ويذكر عن منطقة تلمسان أن حدّها هو أول الصحراء من مدينة تنزل على الطريق إلى سجلماسة (**الاستبصار** ص 176).

التفوق على الدول المعاصرة:

بفضل الجيش المنظم والأسطول القوي كان لخلفاء هذه الفترة النصر الحاسم في كل صراع مع من عاصرهم من ملوك وأمراء. وكان صراعهم مع دول إسبانيا المسيحية وصقلية مباشراً، بينما لم تسنح لهم فرصة للنزاع المباشر مع الأيوبيين.

في الأندلس أوقفوا زحف الممالك المسيحية. وتجلت قدرتهم في انتصارهم العظيم في موقعه الأرك سنة 591 / 1195[1]. وتفوق الموحدين في عصر الازدهار هذا دفع بعض أمراء المسيحيين إلى أن يتحالفوا معهم ويحاربوا في صفهم[2]، ومن ظل على عدائه كان يغتنم انشغال الخلافة بأحداثها الداخلية ـ وكانت كثيراً ما تقع في المغرب أو إفريقية ـ فيشن حرباً شعواء، ولكن الموحدين كانوا يقفون في وجههم ويجرعونهم من الهزائم كؤوساً، فيضطرون لطلب السلم والمهادنة[3]. وبالنتيجة استرد الموحدون مدناً وحصوناً كان المسيحيون قد استولوا عليها من قبل مثل باجة، وشلب، وبابرة وقلعة رباح، وشلبطرة[4]، وتوغلوا في أراضي المسيحيين غزاة فوصلوا مجريط ووادي الحجارة[5].

تبين الصقليون تفوق الموحدين عليهم عسكرياً لا سيما في البحر منذ أن أجلوهم عن إفريقية، فسعوا لمصالحتهم، وأبرموا السلم مع يوسف بن عبد المؤمن (576 / 1180)[6] وظلوا على علاقة طيبة معهم حتى انقرض أمر بني عبد

(1) **المعجب** ص 282، **الحلل الموشية** ص 133.

(2) **رسائل موحدية** ص 238، **المن بالإمامة** ص 368-372، 380-381، 400 **البيان المغرب** جـ 3 ص 80، 85.

(3) راجع **رسائل موحدية** ص 221 ـ 222، 283، **المن بالإمامة** ص 526 ـ 527 **المعجب** ص 283.

(4) **المعجب** ص 283، **وفيات الأعيان** جـ 65 ص 8، البيان المغرب جـ 3 ص 175، 238.

(5) **البيان المغرب** جـ 3 ص 203.

(6) **الكامل** جـ 11 ص 468، **نهاية الأرب** ص 220.

المؤمن. ولكنهم كانوا إن وجدوا فرصة لإضعافهم لا يفوتونها، فلهذا نجدهم يساعدون الميورقيين لاستعادة جزيرتهم لما فقدوها في سنة 581 / 1185[1].

وكانت علاقات الموحدين بالأيوبيين متوترة وبصفة خاصة أيام المنصور. ولما دخل الأغزاز المصريون إفريقية، وأثاروا الفتن والثورات بالتعاون مع العرب الهلالية ثم بني غانية، أحفظ ذلك الموحدين عليهم واعتبروه بتدبير من حكام مصر، والأيوبيون كانوا يعلمون ذلك[2]، ولا سيما أنهم كانوا يعطفون على بني غانية إن لم نقل قد ساعدوهم[3]. واتضحت النوايا عندما طلب صلاح الدين الأيوبي مساعدة الموحدين البحرية فلم يستجب المنصور[4] بل صرح بنيته في غزو مصر. غير أن ظروف الدولتين حالت دون الصدام المسلح، فكل منهما كانت مشغولة بحملات خارجية متزايدة.

التصدي للثورات الداخلية:

ذكرنا فيما سبق أن تاريخ المغرب هو تاريخ القبائل، والقبيلة لا تعرف سلطاناً خارج نطاقها، ولا ترقى لفهم مسألة الدولة، وعرف ابن تومرت هذه الحقيقة، فوضع نظاماً حفظ به وحدة قبائل الموحدين، وأبقت تلك القبائل على وحدتها طوال عهد ازدهار الدولة، ولما كانت كلها من المصامدة فنجاحها أغرى المجموعات الأخرى، فانطلقت في ثورات متعددة كما بيّنا آنفاً. وتكررت

(1) البيان المغرب جـ 3 156 ـ 157.

(2) أنظر خطاب صلاح الدين لرسوله ابن منقذ عند أبي شامة في الروضتين جـ 2، ص 171، وقد اختلف فيمن دفع الأغزاز إلى إفريقية فقد قيل صلاح الدين (الرحلة ص 111 ـ 112، العبر، جـ 6 ص 394، صبح الأعشى، جـ 13 ص 87) وقيل تقي الدين ابن أخ صلاح الدين (الروضتين جـ 1 ص 260) وبعد بحث المسألة لم نجد سوى طموح الأغزاز أنفسهم دافعاً ولا سيما أن العصر كان مواتياً.

(3) راجع سعد زغلول عبد الحميد «العلاقة بين صلاح الدين الأيوبي وأبي يوسف يعقوب المنصور» مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، 1952 ـ 1953 ص 84 ـ 100، الصحراوي، جولات في تاريخ المغرب ص 69 ـ 101.

(4) المعجب ص 284.

ثوراتهم في جبال غمارة وبلاد صنهاجة[1]، ومنطقة السوس[2] كلما واتت الظروف وقد تمكن الخلفاء الثلاثة الأول من إخمادها.

وساوق ثورات القبائل المغربية فتن أشد وأعتى في إفريقية (تونس)، لعب الدور الأساسي فيها العرب الهلالية والأغزاز ثم الميورقيون، وتصاعد الخطر لما تحالفوا جميعاً. وعقب كل فتنة إفريقية اضطر الخلفاء للخروج بأنفسهم لإخمادها، وهذا ما فعله يوسف والمنصور ثم الناصر. ولم ينجح أحدهم في القضاء النهائي على أهل الفتنة، ولكنهم حدوا من الخطر، وأبقوا على الأثر. وقد حال دون القضاء المبرم أن الثورات كانت تندلع وجيوش الخلافة في أشد حالات المجابهة مع القوى المسيحية في إسبانيا، هذا بالإضافة لطبيعة المنطقة الصحراوية وبعدها عن العاصمة. وبالرغم من ذلك فقد نجح خلفاء عصر الازدهار في إخماد ثورات المغرب والحد من الخطر والفتن بإفريقية، الأمر الذي لم يتيسر للدولة في فترة انحلالها.

التقدم الاقتصادي:

إن تفوق الموحدين على أعدائهم في الخارج والثائرين في الداخل، مكنهم من فرض الأمن، والاستقرار في ربوع دولتهم وفي البحر الذي حولهم. وقد تبين خلفاؤهم الارتباط بين حالة الأمن والوضع الاقتصادي، فشدد عبد المؤمن في أمر قطاع الطرق، ويروي ابن شداد فيما نقله عنه النويري أن عبد المؤمن قتل حفاظ محلة قرب بجاية سرقت فيها أمتعة أحد تجار المهدية[3]، وتابع يوسف والمنصور هذه السياسة ويقول ابن صاحب الصلاة عن أيام يوسف «يسير الراكب حيث شاء من بلاد العدوة في طرقها من جبلها وسهلها آمناً في

(1) المن بالإمامة ص 307 ـ 321، 329، الكامل جـ 11 ص 312 ـ 313، البيان المغرب جـ 3 ص 69 ـ 72، 110، روض القرطاس ص 153.

(2) المن بالإمامة ص 360، المعجب ص 315 ـ 316، البيان المغرب جـ 3 ص 76 ـ 77، 215.

(3) نهاية الأرب ص 215 ـ 216.

نفسه وماله لا يخاف إلا الله أو الذئب»[1]، ويذكر صاحب روض القرطاس عن عهد المنصور مثل هذا القول[2]. ونتيجة للأمن والاستقرار اتسعت الزراعة وراجت التجارة ونهضت الصناعة وكثرت المجابي وبلغت الدولة في ازدهارها الاقتصادي حالة «لم ير أهل المغرب أياماً قط مثلها»[3].

والمتصفح لكتاب **الاستبصار في عجائب الأمصار** الذي كتب في هذه الفترة يلمح التوسع الزراعي في كثرة المحصولات وتنوعها[4]. ولا ريب في أن توسع أراضي الدولة وتنوع مناخها له فضل في ذلك كبير، ولكن الفضل الأكبر يعود إلى سياسة الدولة نفسها. فالخلفاء غرسوا كثيراً من البساتين[5]، وحثوا الناس على التوسع في الزرعة، وأشركوا الجند في الحصاد في بعض الأوقات[6]، وعملوا على حماية الزراعة من الثورات والفتن[7].

وتجلت النهضة الصناعية[8] في استغلال المعادن[9]، وصناعة السفن التي انتشرت دورها في السواحل[10]، وإنتاج السلاح، والمصنوعات الزراعية وخاصة المنسوجات والسكر والزيت[11].

---

(1) **المن بالإمامة** ص 286، **البيان المغرب** جـ 3 ص 65، 138.

(2) **روض القرطاس** ص 143.

(3) **المعجب** ص 256.

(4) **الاستبصار** ص 113، 116، 117، 119، 147، 150، 153، 210.. إلخ.

(5) أنظر عن بحائر مكناسة ومراكش **الاستبصار** ص 187، 210، 211.

(6) **رسائل موحدية** ص 215، **البيان المغرب** جـ 3 ص 225.

(7) المصدران ذاتهما ص 184 ـ 185، جـ 3 ص 152 ـ 153.

(8) راجع عن النهضة الصناعية ما أورده محمد المنوني في كتابه **العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين** ص 253 ـ 270.

(9) عن المعادن في هذه الفترة أنظر:
المعجب ص 362 ـ 363.
الاستبصار ص 181، 212.

(10) **الاستبصار** ص 120، 130، **الاستقصا** جـ 2 ص 143.

(11) انظر **الاستبصار** ص 113، 118، 154، 170، 173، 211-212.

ورافق هذه النهضة الزراعية والصناعية اتساع في التجارة الداخلية والخارجية فقد تاجروا مع المشرق العربي وبلاد السودان وأوربا وعقدوا الاتفاقات التجارية[1].

ازدهار العمران:

من سمات عصر الموحدين في طور ازدهاره العمران الواسع. فقد أصلحوا الطرق ومدوا الجسور، وأقاموا مدناً جديدة، وأصلحوا أخرى قديمة، وشيدوا المساجد والمدارس والمستشفيات[2]. ولعل أبرز معالم النهضة العمرانية في هذه الفترة تتجلى في عمليات جلب المياه للمدن أو المؤسسات أو المزارع[3]. وفي الفنون الجميلة كالتزويق وعمل الفسيفساء[4]، والحصون والمنارات.

النهضة العلمية:

إن ازدهار المعارف وتنوعها من سمات العصر الموحدي البارزة[5]، فقد «استوت الشخصية العلمية للغرب الإسلامي في صورتها التامة»[6] بفضل من طابع الدولة العقائدي وتشجيع الخلفاء والسادات بني عبد المؤمن: بما أجزلوا من عطاء لأهل الفكر والأدب، وما أسسوا من مدارس وما شيدوا من مساجد، وما

---

(1) أنظر Julien; v. 2, pp. 122 — 124.
المغرب عبر التاريخ جـ 1 ص 316 ـ 317.

(2) نكتفي هنا بالإشارة لهذه المظاهر وسنفصلها في الفصول القادمة.

(3) **الاستبصار** ص 137 ـ 138، 140، 180 ـ 181، 209، 260.

(4) محمد المنوني: **العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين** ص 267 وما بعدها.

(5) راجع عن الحياة الفكرية: **الأدب الأندلسي** جـ 1 ص 79 ـ 84، **النبوغ المغربي في الأدب العربي** جـ 1 ص 110 ـ 171، **العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين** ص 21 ـ 234، محمد بن شريفة: **أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي** ص 24 ـ 28 فصفحاته رغم قلتها فقد أحاط المؤلف بالموضوع في شمول ودقة وخاصة قد اعتمد كثيراً على معلومات مخطوط الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي، وانظر ما أورده بالنثيا من مقاطع في كتابه **تاريخ الفكر الأندلسي**.

(6) ابن شريفة: **أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي** ص 24.

نظموا من خزائن للكتب، وما وفروا من جو من الحرية أرحب من الجو الذي وفره المرابطون، فحدوا من شوكة الفقهاء المالكيين.

هذا بالإضافة لما للمنافسة بين مشرق الإسلام ومغربه، والعدوتين الأندلسية والمغربية من أثر في إثراء الحياة الفكرية والأدبية، فغذتها بروح وثابة كان لها الفضل في تدوين كثير من المؤلفات. ولكل هذه العوامل تشعبت فنون المعرفة وكثر العلماء في كل فن.

لقد نادى الموحدون بالاجتهاد والرجوع إلى الكتاب والسنة، فزاد اهتمام الناس بالقرآن وعلومه، والحديث وروايته. فظهر مفسرون عظام كأحمد بن مسعود القرطبي (ت 601 / 1204)، وأبي الحجاج يوسف بن عمران المزدغي (ت 655 / 1257)، وأبي الربيع الكلاعي (ت 632 / 1236)، ومحدثون كبار كابني دحية أبي الخطاب (ت 633 / 1236) وأبي عمر (ت 634 / 1237)، وابن القطان الفاسي (ت 628 / 1231). وكثرت العناية بدراسة أصول الفقه والكلام وبرز فيهما أبو عمر عثمان بن عبد الله بن عيسى السلالجي (ت 574 / 1178) وأبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الفندلاوي (ت 596 / 1200).

ونالت علوم العربية وآدابها حظاً عظيماً وللدلالة على ذلك يكفي أن نذكر ابن مضاء القرطبي (ت 592 / 1196)، وابن هشام اللخمي الإشبيلي (570 / 1175)، وابن خروف (ت 602 / 1212)، وأبا موسى الجزولي (ت 607 / 1210). ونفقت سوق الأدب من شعر ونثر لحاجة الدولة إلى ناطقين باسمها، وكتاب في دواوينها، هذا عدا ما للرفاه المادي من أثر في ازدهار الأدب وتنوع أغراضه. وإذا أخذنا الشعر مثلاً، مصداقاً لقولنا، نجده قد تعددت ضروبه، وكثرت أغراضه، وبرز أعلام في كل فن: كابن حزمون في الهجاء، وابن سهل (ت 649 / 1251) في المجون، وابن قسوم الإشبيلي (ت 639 / 1242) وأبي زيد الفازازي (ت627 / 1230)، في الزهد، وابن عربي (ت 638 / 1240) وأبي الحسن الششتري (ت 668 / 1270) في الشعر الصوفي، وأبي العباس الجراوي (ت 609 / 1212) وابن حبوس (ت 570 / 1175) وابن المنخل (ت 560 / 1165) في المدح.

وبلغ المغرب الإسلامي في علوم التاريخ والجغرافيا والرحلات والتصوف والفلسفة والطب شأوا لم يبلغه من قبل. ولهذه الحقبة انتمى ابن صاحب الصلاة (ت 594 / 1198) وعبد الواحد المراكشي (ت 621 / 1224) والشريف الإدريسي (ت 562 / 1166) وصاحب كتاب الاستبصار (ت السادس / الثاني عشر)، وابن جبير (ت 614 / 1217) وابن سعيد المغربي (ت 685 / 1286) وشب في أحضانها ابن الآبار (ت 658 / 1260) وابن عذاري المراكشي، وابن عبد الملك المراكشي، وابن الزبير، ونبغ فيها عبد الملك بن زهر (ت 557 / 1162)، وأبو بكر بن طفيل (581 / 1185)، وابن رشد (ت 595 / 1198) وابن ميمون (ت 600 / 1204)، وابن البيطار (ت 645 / 1248)، وقد سبق أن أشرنا إلى ابن عربي والششتري في أعلام الشعر، وهما من أشهر أعلام التصوف في هذه الفترة، هذا بالإضافة لابن حرزهم (ت 559 / 1164) وابن سبعين (ت 669 / 1270). وغيرهم كثير.

ولم يكن حظ النساء من هذه الحياة الفكرية بقليل، فقد اشتركن في ضروبها المختلفة بقدر غير يسير[1].

طور الانحلال والسقوط:

مع مطلع القرن السابع / الثالث عشر دخلت الدولة في دور الانحلال. وتصور الروايات وفاة يوسف المستنصر (620 / 1223) «آخر ضخامة» الدولة الموحدية لما أعقبها من نزاع على الخلافة بين أفراد الأسرة المؤمنية عصف بدولتهم[2]، ونقطة بداية الانحدار من القمة إلى السفح، فيما أرجح، هي أواخر فترة الخليفة الناصر رابع خلفاء الموحدين ولقد أثبت فشله في إدارة الدولة المترامية الأطراف بمركزية متحكمة يوم عين والياً على إفريقية بسلطات استثنائية

---

(1) راجع عنهن **النبوغ المغربي** جـ 1 ص 144، **العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين** ص 29، 33 ـ 35.

(2) **المعجب** ص 329، **الحلل الموشية** ص 135، محمد المنوني **«الإمبراطورية الموحدية في دور الانحلال»**، **دعوة الحق** (دجنبر 1962) ص 57.

في عام 603 / 1207[1]. وأعقب ذلك فشله الكبير في الوقوف أمام النصارى في إسبانيا يوم العقاب (609 / 1212) التي كان فيها هلاك ألأندلس ولم تقل بعدها دولة الموحدين العثرة[2]. وختم حياته بتولية صبي غر فتغلب عليه أشياخ الموحدين[3]. وبوفاته توالت مظاهر الانحلال وسنشير لها في إيجاز ونترك للفصول التالية من الرسالة الكشف عن تفاصيلها.

إن نزاع السادة بني عبد المؤمن على الأمر أتاح فرصة لمراكز القوة للتنفذ في شئون الدولة، لا سيما أشياخ الموحدين. فتسلط الأشياخ، وسيطر الوزراء، واستبد الولاة. فضعفت الإدارة، واختل الجيش، واندثر الأسطول. وبالنتيجة كثرت الثورات، وضعف الخلفاء عن التصدي لها، فضلاً عن مجابهة القوى الخارجية، بل واستعانوا بالنصارى في سبيل القضاء عليها[4]. وانهارت الأوضاع الاقتصادية فتوقفت الحراثة[5] وحركة العمران وأصاب الدمار ما شيد في دور الازدهار[6]. وذبلت الحياة الفكرية وانتقل الأدباء والشعراء والعلماء إلى تونس حيث وفر الحفصيون جواً من الاستقرار. وتقلصت أراضي الدولة وكانت الأندلس السباقة للانفصال، فقام أبو عبد الله محمد بن هود بمرسية (625 / 1228) وحكم تحت شعار العباسيين تقرباً إلى العامة[7]. ولما نكث موحدو مراكش بيعة المأمون، واضطر لمغادرة الأندلس «خلا الجو لابن هود وانتهز النصارى الفرصة»[8]، فسيطر ابن هود على معظم الجزيرة التي قام كل بلد فيها على من

(1) **البيان المغرب** جـ 3 ص 225، **الرحلة** ص 362، **العبر** جـ 6 ص 583، **الإحاطة** جـ 1 ص 320، الزركشي: **تاريخ الدولتين** ص 18، **المؤنس** ص 131.
(2) **البيان المغرب** جـ 3 ص 241، **روض القرطاس** ص 159.
(3) **البيان المغرب** جـ 3 ص 243.
(4) **البيان المغرب** جـ 3 ص 264، **روض القرطاس** ص 167، **الإحاطة** جـ 1 ص 419.
(5) **الذخيرة السنية** ص 35.
(6) **روض القرطاس** ص 29، **الذخيرة السنية** ص 66.
(7) **البيان المغرب** جـ 3 ص 225 ـ 228، **روض القرطاس** ص 182، **اللمحة البدرية** ص 31.
(8) **الإحاطة** جـ 1 ص 430.

به من الموحدين، ودخلت الأندلس في عهد طوائف ثالث، ولم تخضع مناطقها ثانية لسلطة مراكش إلا اسمياً لما بايع بنو الأحمر الرشيد لفترة قصيرة[1].

ويسر انقلاب المأمون على مبادىء الدولة الموحدية، استقلال الحفصيين بإفريقية (627 / 1230)[2]، وفشلت آخر محاولة لاستردادها في عهد السعيد (646/ 1248)[3]، وتكرس انفصالها يوم أعلن أبو عبد الله الحفصي نفسه خليفة (647 / 1249)[4]، ونازع موحدي مراكش السيادة على أكثر مناطق الدولة.

وبانفصال الأندلس واستقلال إفريقية لم يبق لخلفاء مراكش سوى المغرب الأقصى الذي لم يعد لهم نفوذ على بواديه[5]. فقد استبد بها عرب الخلط وسفيان والمعقل ثم بنو مرين. وعلى الرغم من الجهود التي بذلها الرشيد، لم تحافظ الدولة على هيبتها، أو تبسط سلطتها إلا لوقت قصير[6]. وبوفاته استبد الولاة بولاياتهم وبايعت كثير من مدن المغرب الحفصيين[7]. وبدأ نفوذ بني مرين يعظم فهزموا جيوش الموحدين[8]، وحدوا من تعدي العرب على الناس، فعظموا في نفوس أهل المغرب[9].

فما جاءت أيام المرتضى إلا وقد سيطروا على أغلب مناطق المغرب،

(1) **البيان المغرب** جـ 3 ص 342، **العبر** جـ 6 ص 537.
(2) **البيان المغرب** جـ 3 ص 274-276، **العبر** جـ 6 ص 594، **الإحاطة** جـ 1 ص 320-321.
(3) **البيان المغرب** جـ 3 ص 385-388، **روض القرطاس** ص 173، **العبر** جـ 6 ص 541.
(4) **البيان المغرب** جـ 3 ص 398، **الإحاطة** جـ 1 ص 322، **تاريخ الدولتين** ص 32.
(5) محمد المنوني «الإمبراطورية الموحدية في دور الانحلال» **دعوة الحق** (دجنبر 1962) ص 57.
(6) راجع **البيان المغرب** جـ 3 ص 335، 337، 340، 343، 356، **روض القرطاس** ص 171، **العبر** جـ 6 ص 537.
(7) أنظر **البيان المغرب** جـ 3 ص 360 ـ 362، 373، **العبر** جـ 6 ص 614، 617، 619.
(8) موطنهم زاب إفريقية إلى سجلماسة ودخلوا المغرب بعد موقعة العقاب (**روض القرطاس** 181، 187) عن هزائمهم للموحدين أنظر البيان جـ 3 ص 244-247 **والعبر** جـ 6 ص 524.
(9) **البيان المغرب** جـ 3 ص 350.

وهددوا مراكش نفسها[1]، ووالوا هزائمهم على الموحدين حتى قضوا على آخر الخلفاء الواثق أبي دبوس منسلخ 667 / 1269 ودخلوا مراكش ووضعوا نهاية الموحدين بالمغرب الأقصى [2].

وكل هذه المظاهر الدالة على الانحلال والضعف لا تفسر السبب فيه. وعندي أن الروح التي أقامت الدعوة وأسست الدولة أصابها ذبول وضمور وفي هذه الظاهرة يكمن سر الانحلال والسقوط. والتنظيمات والنظم الموحدية خير ما يصور الروح الموحدية قوةً وضعفاً ومن هنا برزت لنا أهمية دراستها.

(1) البيان المغرب جـ 3 ص 392 ـ 394، العبر جـ 6 ص 542.

(2) روض القرطاس ص 175، العبر جـ 6 ص 551.

الفصل الثاني

التنظيم الحزبي

مقال لنفس الباحث بمجلة "الأبحاث" الأمريكية لسنة 1965
عن ص 63-87، وتطويرات دون حزب
الموحدين

كانت تنظيمات الموحدين الحزبية تكمن وراء نظمهم الإدارية، وتشكيلاتهم العسكرية، وخططهم الدينية، وأوضاعهم المالية. ومنذ البداية ذابت تنظيمات الحزب في نظم الدولة وغدت جزءاً لا ينفصم عنها، ولا يستطيع الدارس لهذه أن يتجاهل أثر تلك، ولهذا تصبح دراسة تنظيمات الموحدين الحزبية جزءاً ضرورياً من دراسة نظم دولتهم.

مفهوم الحزب:

إن التنظيم الحزبي سمة بارزة للحضارة المعاصرة، وقد تدفع النظرة المستعجلة بصاحبها إلى الظن بأن في هذا إطلاق مفاهيم حديثة على أوضاع ماضية، ونظرة إلى التاريخ من خلال الحاضر، والأمر على غير ذلك. إن كلمة «حزب» لم تكن غريبة على حسّ الموحدين الديني، إذ أن القرآن يصف المجموعات المتجانسة عقائدياً أو مصلحياً بالأحزاب، ويسمي المؤمنين «حزب الله»، والكافرين «حزب الشيطان»[1]، وقد اعتقد الموحدون ألا أحد على وجه الأرض آمن إيمانهم[2]، ولا عجب ـ بعد ذلك ـ إن ظنوا في أنفسهم أنهم حزب الله الغالب. وقد نعتوا أنفسهم بـ «حزب التوحيد» واستعملوا اللفظة في رسائلهم الرسمية في أيام الخلفاء الأول[3].

---

(1) سورة 30 آية 22، سورة 58 آية 19، 22، سورة 33 آية 20، 22.

(2) المعجب 188.

(3) كان ابن تومرت يطلق على أتباعه كلمة «طائفة» وعلى مخالفيه في الرأي «طوائف» أنظر أعز ما يطلب ص 259 وما بعدها، 267 وما بعدها.

أولية التنظيمات:

اضطراب المادة:

تواجه الدارس لتنظيمات الموحدين الحزبية صعوبات جمة إذ أن الروايات مختلفة والمادة مضطربة، ويصعب الفصل فيها برأي قاطع. ويرجع الغموض فيها إلى سببين:

أولاً: قامت ثورة الموحدين بعد عام واحد من الإعداد المنظم، ولم تتكون تنظيماتهم الحزبية إلا بعد الثورة، وتبلورت تلك التنظيمات خلال مسيرة الموحدين نحو النصر. وفي بداية الأمر تولت تلك التنظيمات وظائف النظم الحكومية. ولما قامت الدولة وتولت نظمها الأعباء وأرخ الناس للفترة الأولى خلطوا بين التنظيمات النظم.

ثانياً: إن المادة عن النظم والتنظيمات في تاريخنا الإسلامي - بوجه عام - قليلة وغامضة فكيف إن جاءت عن رواة بعدوا عن الأحداث مكاناً وزماناً. وأكثر المعلومات عن تنظيمات الموحدين الحزبية جاءت عن أحد ثلاثة رجال، إما عن رجل كتب بعد الأحداث الأولى بزمن، أو عن رجل صنف من ذاكرته، وخارج أرض الأحداث، أو عن رجل جمع بين الأمرين معاً. فمن النوع الأول صاحب كتاب الأنساب، وابن صاحب الصلاة، ومن الصنف الثاني اليسع، ومن النوع الثالث عبد الواحد الماركشي.

وما يذكره الرواة عن أصناف الموحدين خير ما يصور اضطراب المادة عن التنظيمات الحزبية. إن الأصناف عند اليسع[1] هي: العشرة وأهل خمسين وأهل سبعين والطلبة والحفاظ وأهل الدار وهرغة وأهل تينملل وجدميوة وجنفيسة

= وأما عن استعمال كلمة «حزب» أنظر **رسائل موحدية** ص 163، **البيان المغرب** جـ 3 ص 151، 285، 287.

(1) وردت الرواية في **نظم الجمان** ص 28، **الحلل** ص 89.

وهنتاتة وأهل القبائل والجند والغرات[1]. وعند صاحب كتاب الأنساب[2] هي: أهل الدار وأهل الجماعة وأهل الخمسين وهرغة وأهل تينملل وهنتاتة وكُدميوة وكُنفيسة وكومية والقبائل وهسكورة وصنهاجة وعبيد المخزن والمحتسبون والسكاكون والمؤذنون والغزات والحفاظ وأهل الحزب. وليس هناك رواية شبيهة بهاتين الروايتين في شمولهما غير أنهما تخلطان بين التنظيمات الحزبية والنظم الإدارية والعسكرية والخطط الدينية، ويبرز الخلط بوضوح عند صاحب كتاب الأنساب. ولهذا نميل إلى القول بأن الروايتين تمثلان مرحلتين مختلفتين وتؤكد هذا الرأي ثلاثة أمور:

أولاً: الروايتان لا تتفقان في الأصناف أو عددها أو ترتيبها.

ثانياً: يهمل صاحب كتاب الأنساب الطلبة وبذكر الحفاظ، والحفاظ استحدثوا بأخرة، ويذكر كوميه ويهملها اليسع، وكوميه أضيفت إلى قبائل الموحدين بعد قيام الدولة واستقرارها.

ثالثاً: جاء ترتيب الأصناف في كلتيهمّا حسب تواليهم في التمييز (العرض)[3].

والتنظيمات التي يمكن أن تعتبر تنظيمات حزبية هي: العشرة أو أهل الجماعة وأهل خمسين وأهل سبعين والسبعة[4] والطلبة والحفاظ والكافة.

تاريخ تكوين التنظيمات:

تجمع الروايات على أن قيام هذه التنظيمات تمّ بعد بيعة ابن تومرت

(1) هكذا قرأها محقق **نظم الجمان** وقرأها محقق **الحلل الموشية** «الغزات» وسنبدي رأينا في هذا الأمر عند شرح النظام العسكري، وأسقطت رواية **الحلل الموشية** «أهل القبائل».

(2) وردت في **أخبار المهدي** ص 29 - 48.

(3) **نظم الجمان** ص 29، أما صاحب كتاب الأنساب فيؤكد ذلك مع ذكر كل صنف.

(4) لا يذكر هذا الصنف إلا ابن صاحب الصلاة وقد أورده ابن القطان نقلاً عنه (**نظم الجمان** ص 32).

بالمهدية[1]. ويحدد اليسع تاريخ ذلك بالبيعة نفسها، إذ كون ابن تومرت من العشرة الأول أهل العشرة، ومن الخمسين الذين يتبعونهم أهل خمسين، ومن السبعين الذين يلونهم أهل سبعين[2]. وتجنب عبد الواحد المراكشي وصاحب كتاب الأنساب تحديد زمن معين[3].

إن المقارنة بين العشرة الأول الذين بايعوا ابن تومرت بالمهدية ـ كما أوردهم البيذق الذي اشترك معهم فيها ـ مع العشرة أهل الجماعة في شتى الروايات لا تكشف عن اشتراك في الأسماء إلا في خمسة أشخاص[4]، مما يدل على بطلان زعم اليسع. وطبيعة تكوين أهل خمسين لا تسمح بقبول رأيه. وقد أصاب صاحب كتاب الأنساب كبد الحقيقة عندما قال: «فلما أراد الله تعالى تعيين أهل الخمسين كان الإمام المهدي رضه ينظر في الموحدين ويلتقطهم منهم رجلاً بعد رجل»[5]. وإذا صح الاختيار في أهل خمسين فهو في أهل الجماعة ألزم، لأنهم أهل ثقته ومشورته. والراجح أن تكوين الهيئات التنظيمية تم على مراحل، وعلى ذلك شواهد غير يسيرة.

لقد تميز العشرة أهل الجماعة بالعلم وبالقدرة القيادية وبالبذل وبالتضحية، الأمر الذي يؤكد أن اختيارهم كان نتيجة فحص كبير وتدقيق تام، وكلهم ممن صحب ابن تومرت قبل إعلان المهدية[6]، إلا أبا حفص عمر بن يحيي الهنتاتي

(1) المعجب ص 188، نظم الجمان ص 28، الحلل الموشية ص 88، روض القرطاس ص 114.

(2) نظم الجمان ص 76، 80، الحلل الموشية ص 88، وقد تبنى علام قول اليسع ونسبه إلى ابن القطان، أنظر الدعوة الموحدية بالمغرب ص 169.

(3) ويبدو أن أشباخ أراد تجنب القضية مثلهما فاكتفى بمثل إشارة المراكشي مع أنه عرف رواية اليسع وما أورده عن أصناف الموحدين يدل على ذلك أنظر تاريخ الأندلس ص 191.

(4) قابل أخبار المهدي ص 73 بالملحق الثاني.

(5) أخبار المهدي ص 35 ـ 36.

(6) المعجب ص 188، 337، الكامل جـ 10 ص 576، روض القرطاس ص 113.

الذي ألحق بأهل الجماعة بعد «توحيد» قبيلته هنتاتة[1]، وربما كان تعينه إرضاء لقبيلته ـ وقد كان أحد زعمائها ـ ، وهنتاتة وافرة العدد جمة الشعوب ولما وحدت ضاعف المرابطون حملاتهم على الموحدين[2]، هذا فضلاً عما تميز به من إمكانيات عسكرية برزت في تأسيس الدولة.

ولم يكن بين أهل الجماعة أحد من هرغة ـ قبيل المهدي وأول من استجاب لدعوته ودخل في أمره ونهض إلى نصرته، فلو تم التكوين بالصورة العارضة التي يزعمها اليسع لكان بين العشرة أهل الجماعة على الأقل واحد من هرغة.

والراجح أن ابن تومرت كان يستعد لإعلان مهديته، ويعمل لتنظيم أتباعه، فكان ينتقي صفوة الرجال ويستخلصهم لنفسه، ولما أعلن مهديته كان أهل الجماعة ماثلين أمامه، فأوكل إليهم مهامهم مع سبق إعداد وتهيئة، فكان إعلان المهدية وكان تكوين أهل الجماعة.

ويبدو أن تكوين أهل خمسين تم على مراحل، وإشارة كتاب الأنساب الآنفة الذكر قاطعة في الدلالة على ذلك. ومما يدعم هذا الرأي أن أهل خمسين يمثلون قبائل الموحدين[3] الست التي انبنى عليها الأمر. وقد كان المهدي يثبت أهل خاصته الذين لم يكونوا من هذه القبائل في قبيلته هرغة[4]. ولم «توحد» قبائل الموحدين في وقت واحد. ولقد دخلت هرغة وكُدميوة وكُنفيسة وقبائل أهل تينملل وهنتاتة الدعوة الموحدية في فترة إيجيليز[5]، وحاربت في صف المهدي

(1) نظم الجمان ص 87، Huici; v.I p. 103 وقد وهم ابن خلدون وذكر أنه دخل في الأمر قبل إعلان المهدية وعده فيمن بايع ساعة إعلانها العبر جـ 6 ص 468، 470.

(2) عن هذه الحملات راجع نظم الجمان ص 86 ـ 89.

(3) المعجب ص 188.

(4) أخبار المهدي ص 28.

(5) أنظر أعلاه ص 40.

طوال حياته(1). بينما كانت هسكورة محاربة له شديدة عليه(2)، ولم توحد إلا في أيام عبد المؤمن(3). وانضمت صنهاجة الجبل عام 529 / 1135(4) والغالب أن صاحب الحلل الموشية يخطىء عندما يجعل قبائل الموحدين الست تبايع المهدي فور إعلان مهديته(5).

إن دخول القبائل في أمر المهدي بعد إعلان مهديته في تفاوت زمني يرجح القول بأن أهل خمسين كانوا يتكاملون عقب انضمام كل قبيلة، وربما مثلت بعض القبائل بأشخاص قبل انضمام قبيلتهم، فبدأت الهيئة في إيجيليز وتبلور دورها في تينملل(6).

وعلى ضوء ما سلف يمكن تضعيف رواية ابن خلدون بشأن تكوين أهل خمسين، فهو يقول: «ولما تم له (أي المهدي) خمسون من أصحابه سماهم أيت خمسين»(7). وابن خلدون شديد الغموض فيما يتعلق بالتنظيمات والنظم الموحدية، وروايته هذه لا تتفق مع الروايات المعاصرة ولا تستقيم مع طبيعة الهيئة التمثيلية.

وأغلب الظن أن تنظيم الطلبة سبق تكوين الهيئتين السابقتين، فالمراكشي يروي لنا أن ابن تومرت ـ قبل إعلان مهديته ـ أرسل رجالاً «ممن استصلح عقولهم» لدعوة القبائل إلى آرائه(8). ويبدو أن إيفاد الطلبة إلى قبائلهم كان عملية مستمرة خاصة بعد إعلان المهدية(9).

(1) أخبار المهدي ص 75، نظم الجمان ص 86 وما بعدها.
(2) أخبار المهدي ص 76، العبر جـ 6 ص 470.
(3) نظم الجمان ص 210.
(4) نظم الجمان ص 210، بينما يذكره ابن الأثير ويتابعه النويري سنة 528 الكامل جـ 10 ص 578، نهاية الأرب ص 196.
(5) الحلل الموشية ص 88 وربما كان ذلك بوحي من رواية اليسع.
(6) يجعل هويسي تكوين أهل خمسين في تينملل Huici; V.I, p. 103
(7) العبر جـ 6 ص 470 وانظر مناقشة هوبكنز (Hopkins) لهذا الرأي في Hopkins: P. 89
(8) المعجب ص 187.
(9) أخبار المهدي ص 132، نظم الجمان ص 84 ـ 85، 93.

من هذه المعلومات عن تاريخ تكوين التنظيمات الحزبية في حياة المهدي، ومن أوقات ظهورها المختلفة، وتدرج نشأتها، يصح الاستنتاج بأن هذه التنظيمات قامت وفق تجدد الظروف وتغيرها.

التنظيمات ودورها:

أهل الجماعة:

تسمى هذه الهيئة في الروايات بـ «العشرة» أو بـ «أهل الجماعة»(1)، غير أن كتاب الأنساب لم يطلق عليها إلا «أهل الجماعة»(2)، فهل «العشرة» تعني الاسم أم العدد؟ إن الروايات تختلف في العدد والأشخاص والترتيب(3)، وأغلب الروايات تذكر عشرة أسماء، بينما تذكر رواية اليسع عند ابن القطان سبعة رجال فقط، وتذكر رواية كتاب الأنساب اثني عشر شخصاً. ولعل اسم الهيئة الأول كان هو «أهل الجماعة»، وربما كان عدد أعضائها في بادىء الأمر عشرة أشخاص تأسياً بالعشرة المبشرين بالجنة، ولا سيما وأن ابن تومرت كان يتأسى خطوات النبي ﷺ(4)، فاكتسبت الهيئة من عددها اسماً آخراً مع اسمها الأول.

والعدد لم يظل ثابتاً، فقد أسقط المهدي الفقيه الإفريقي من أهل الجماعة ثم قتله لما شك في عصمة الإمام وأنكر مذبحة هزميرة(5). وفي موقعه البحيرة ـ آخر غزوة في حياة المهدي ـ استشهد نصف أهل الجماعة(6)، ولا يعلم هل أحل

(1) المعجب ص 188، نظم الجمان ص 28، 30، 74، 76، الحلل الموشية ص 88، 89، روض القرطاس ص 113.
(2) أخبار المهدي ص 32.
(3) أنظر الملحق الثاني.
(4) مثل البيعة تحت الشجرة والهجرة والمغازي.
(5) نظم الجمان ص 97، البيان المغرب (ط. دار الثقافة) جـ 4 ص 69، ووهم عبد الله علي علام فظنه أبا بكر الصنهاجي البيذق (الدعوة الموحدية بالمغرب ص 167) بينما عاش البيذق إلى منتصف القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي).
(6) نظم الجمان ص 122.

المهدي محلهم آخرين أم لا، ولكن وجود روايات فردية فيما يتعلق بأسماء عدد من أعضاء هيئة أهل الجماعة قد يعطي فرصة للافتراض بأن المهدي كان يفعل ذلك. وعليه فإن العدد يختلف من ظرف إلى آخر.

ومن المعلومات المتوفرة عن هذه الهيئة يمكن استخراج أسماء من اشترك فيها، ولكن لا يمكن القول بأن اشتراكهم جميعاً كان في وقت واحد. لقد كان أعضاء أهل الجماعة عبد المؤمن بن علي الكومى خليفة ابن تومرت فيما بعد، وأبو حفص عمر بن علي الصنهاجي، وأبو حفص عمر بن يحي الهنتاتي جد حفصيي تونس، وأبو يحيى أبو بكر يكيت ـ وهؤلاء تجمع عليهم الروايات، وأبو محمد عبد الله محسن الوانشريشي ـ ولا يغفل ذكره إلا المراكشي، وليس ذلك بمستغرب فالمراكشي قد أهمل ذكر التمييز الذي قام به البشير برأي ابن تومرت، وأبو الربيع سليمان بن مخلوف الحضرمي ـ وقد يكون هو الذي جاء في رواية الحلل الموشية باسم اسماعيل بن مخلوف وإذا صح الافتراض لا تهمل ذكره إلا رواية اليسع عند ابن القطان ـ، وأبو إبراهيم إسماعيل بن يسلالي الهزرجي ـ ولم تغفل ذكره إلا رواية اليسع عند ابن القطان ـ، وأبو عمران موسى ابن تمارا الجدميوي، وأبو عبد الله محمد بن سليمان من أهل أنسا، وعبد الله ابن يعلى الزناتي التازي المعروف بابن ملوية.

أما بقية الأسماء فقد انفردت بها رواية دون الأخرى، وقد جاء بعضها في غير هيئة من تنظيمات الموحدين، فيذكر صاحب كتاب الأنساب أبا موسى عيسى ابن موسى الصودي ومحمد عبد العزيز الفيغائي، وكلاهما قد ذكر في أهل دار المهدي[1]. ويذكر المراكشي عبد الواحد الشرقي ويؤكد ذلك بقوله: «على الصحيح، وأبا محمد وسنار» والشخصان تصنفهما روايات أخرى بين أهل دار المهدي[2].

(1) **أخبار المهدي** ص 34.

(2) أنظر **أخبار المهدي** ص 29، **نظم الجمان** ص 33.

إن ذكر بعض أهل الدار بين أهل الجماعة في بعض الروايات يدعو إلى القول بأن أشخاصاً من أهل الدار كانوا يجتمعون مع أهل الجماعة أو يقومون ببعض اختصاصاتهم في بعض الأوقات، الأمر الذي يكشف عن مرونة التنظيم وتداخل أجهزته في حالات معينة لا تسعف الروايات على توضيحها.

إن ترتيب الرواة لأسماء أهل الجماعة لا يساعد في توضيح أهميتهم، ويبدو أن الترتيب تأثر بأحداث متأخرة، إذ يجعل الرواة عبد المؤمن الأول في العشرة، ولا يستثني من ذلك إلا اليسع والمراكشي وقد كتبا بالمشرق: إن أول أهل الجماعة في رواية اليسع، هو البشير، وفي رواية المراكشي هو عبد الواحد الشرقي. ورواية اليسع تمثل الواقع أكثر من غيرها، ولا سيما وإنها قد جاءت عن عبد المؤمن نفسه. ولقد كان البشير قائد جيوش الموحدين ولا تعرف غزوة قادها عبد المؤمن وكان البشير جندياً فيها[1]. وقد خصه المهدي بتمييز المؤمنين عن المنافقين من بين الموحدين[2]، وأغلب الظن أن البشير كان سيخلف المهدي لولا أن عاجلته منيته يوم البحيرة فسبق المهدي إلى الدار الأخرى[3].

ويمكن تحديد وظيفة هذه الهيئة بنوع من الدقة. لقد كان أهل الجماعة بمثابة الوزراء للمهدي[4]، فهم أهل ثقته ومشورته في الأمور العظام[5]، وقد تولوا تنفيذ القرارات. فقد تولى البشير في أغلب الأحوال وعبد المؤمن وعمر أصناج وموسى بن تمارا ـ في بعض الأحيان ـ القيادة العسكرية[6]، وسليمان الحضرمي

(1) راجع أخبار قيادته الجيوش الموحدية في **أخبار المهدي** ص 78، **الكامل** جـ 10 ص 576، 577، **نظم الجمان** ص 88، 115، **الحلل الموشية** ص 93، **البيان المغرب** جـ 3 ص 75، **نهاية الأرب** ص 194، 195، وقد ذكر المراكشي وابن القطان في إحدى رواياته أن عبد المؤمن كان قائد غزوة البحيرة وهذا وهم (أنظر **المعجب** 198، **نظم الجمان** 118).

(2) **أخبار المهدي** ص 36، **نظم الجمان** ص 102 ـ 103.

(3) Huixi; v. 1, p. 101

(4) **نظم الجمان** ص 74.

(5) **المصدر ذاته** ص 81، **الكامل** جـ 10 ص 576، **الحلل الموشية** ص 88.

(6) **أخبار المهدي** ص 75، **نظم الجمان** ص 117.